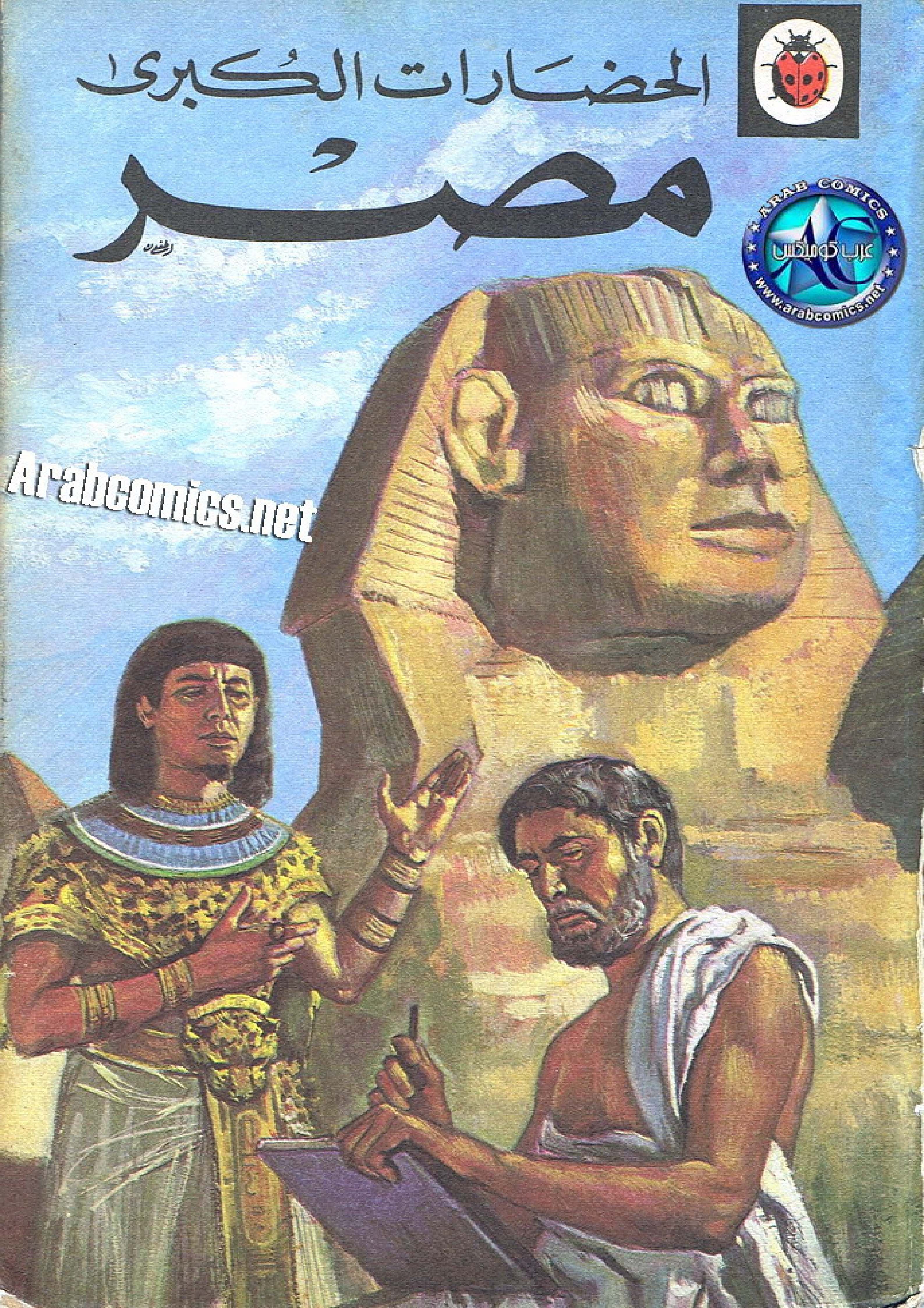
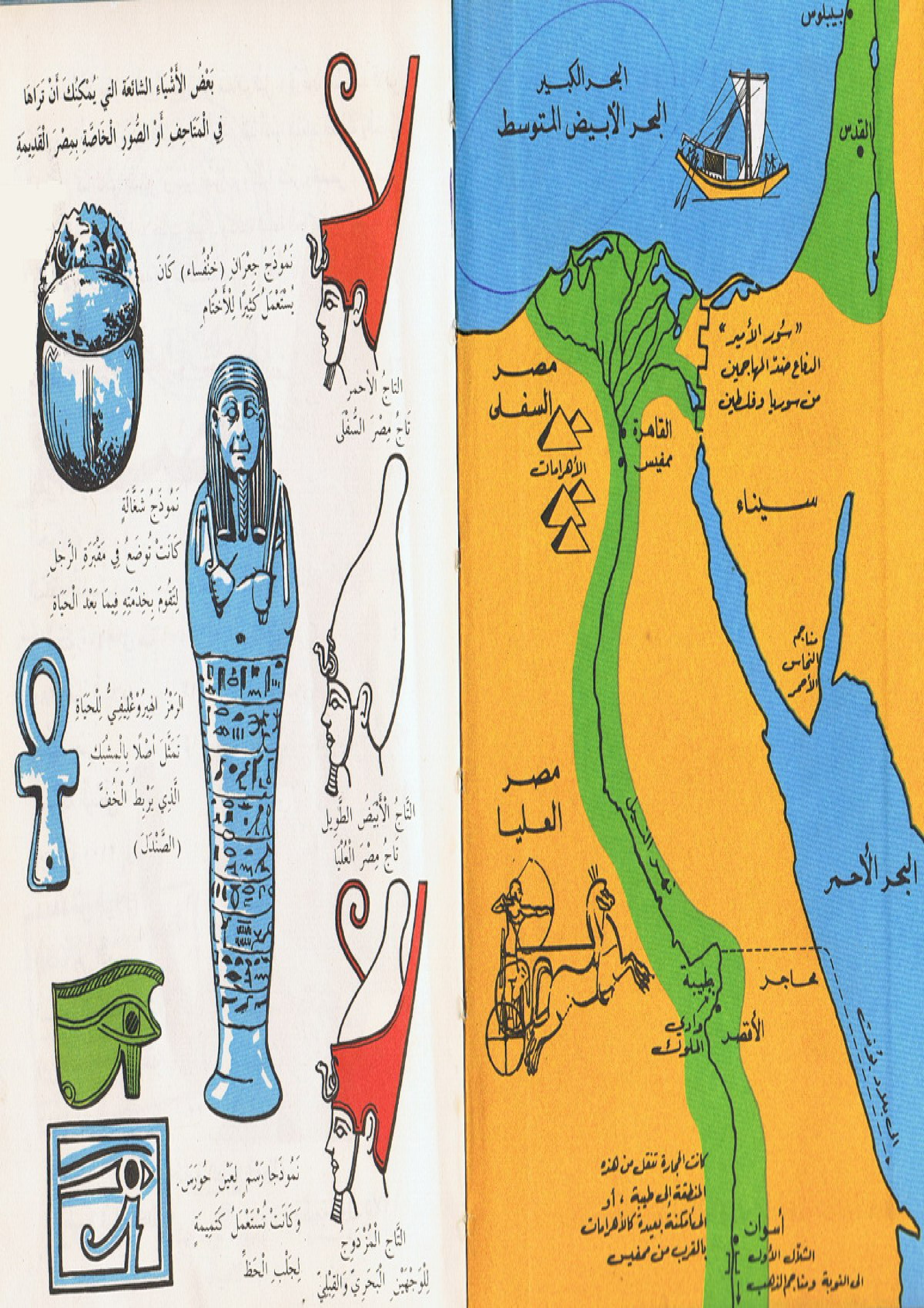


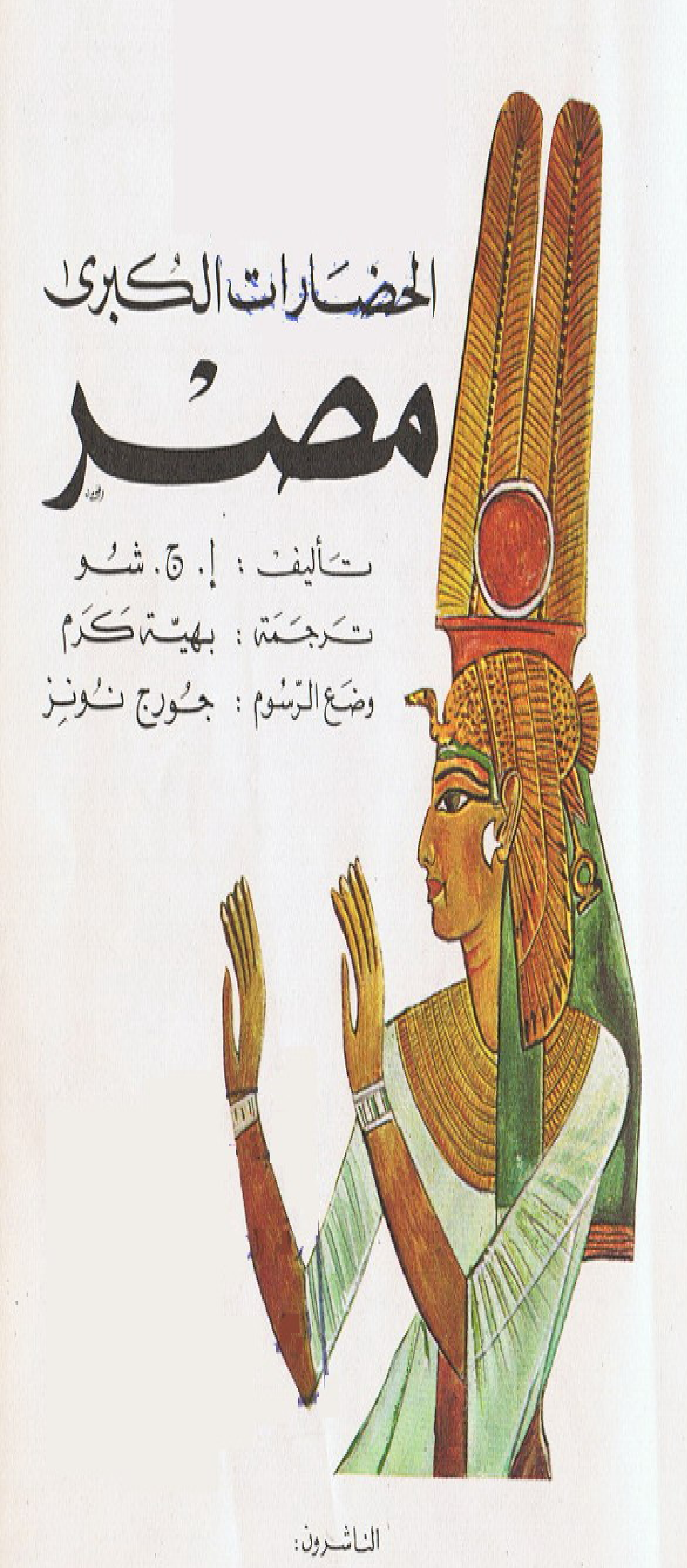
الحضارات الكبرى ١
مصر
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net
Arabcomics.net



بَعْضُ الأَشْيَاءِ الشَّائِعَةِ الَّتِي يُمْكِنُكَ أَنْ تَرَاهَا
فِي الْمَتَاحِفِ أَوْ الصُّوَرِ الْخَاصَّةِ بِمِصْرَ الْقَدِيمَةِ
نَمُوذَجُ جِعْرَانٍ (خُنْفُسَاء) كَانَ يُسْتَعْمَلُ كَثِيرًا لِلأَخْتَامِ
التَّاجُ الأَحْمَرُ
تَاجُ مِصْرَ السُّفْلَى
نَمُوذَجُ شَغَّالَةٍ
كَانَتْ تُوضَعُ فِي مَقْبَرَةِ الرَّجُلِ
لِتَقُومَ بِخِدْمَتِهِ فِيمَا بَعْدَ الْحَيَاةِ
الرَّمْزُ الهِيرُوغْلِيفِيُّ لِلْحَيَاةِ
تَمَثَّلَ أَصْلًا بِالْمِشْبَكِ
الَّذِي يَرْبِطُ الْخُفَّ
(الصَّنْدَلَ)
التَّاجُ الأَبْيَضُ الطَّوِيلُ
تَاجُ مِصْرَ الْعُلْيَا
نَمُوذَجًا رَسْمٍ لِعَيْنِ حُورِس.
وَكَانَتْ تُسْتَعْمَلُ كَتَمِيمَةٍ
لِجَلْبِ الْحَظِّ
التَّاجُ الْمُزْدَوَجُ
لِلْوَجْهَيْنِ الْبَحْرِيِّ وَالْقِبْلِيِّ
بيبلوس
البحر الكبير
البحر الأبيض المتوسط
القدس
"سور الأمير"
الدفاع ضد المهاجرين
من سوريا وفلسطين
مصر
السفلى
القاهرة
ممفيس
الأهرامات
سيناء
مناجم
النحاس
الأحمر
مصر
العليا
البحر الأحمر
طيبة
محاجر
وادي
الملوك
الأقصر
كانت الحجارة تنقل من هذه
المنطقة إلى طيبة ، أو
إلى أماكنة بعيدة كالأهرامات
بالقرب من ممفيس
أسوان
الشلال الأول
إلى النوبة ومناجم الذهب

كَانَ سُكَّانُ مِصْرَ ، الَّذِينَ يَعِيشُونَ عَلَى ضِفَافِ النِّيلِ ، يَزْرَعُونَ الْقَمْحَ مُنْذُ آلافٍ كَثِيرَةٍ مِنَ السِّنِينَ ، وَيَقْتَنُونَ الْحَيَوَانَاتِ الأَلِيفَةَ . لَقَدْ أَقَامُوا الْمَعَابِدَ الْعَظِيمَةَ وَالْمَقَابِرَ الْبَدِيعَةَ ، كَمَا نَحَتُوا التَّمَاثِيلَ وَرَسَمُوا الصُّوَرَ ، وَكَتَبُوا الشِّعْرَ وَالْقِصَصَ ، وَوَضَعُوا مَقَايِيسَ دَقِيقَةً ، وَسَطَّرُوا مُلاحَظَاتٍ عِلْمِيَّةً . وَكَانَتِ السُّلْطَةُ الْحَاكِمَةُ عَلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ التَّنْظِيمِ ، وَبِهَا عِدَّةُ إِدَارَاتٍ مُتَخَصِّصَةٍ . وَبِوَجْهٍ عَامٍّ كَانُوا مُجْتَمَعاً عَلَى جَانِبٍ عَظِيمٍ مِنَ الرُّقِيِّ وَالْحَضَارَةِ .

طُبع في انكلترا © الطبعة الأولى ١٩٧٥



الحضارات الكبرى

مصر

تأليف : إ. ج. شو

ترجمة : بهيّة كرم

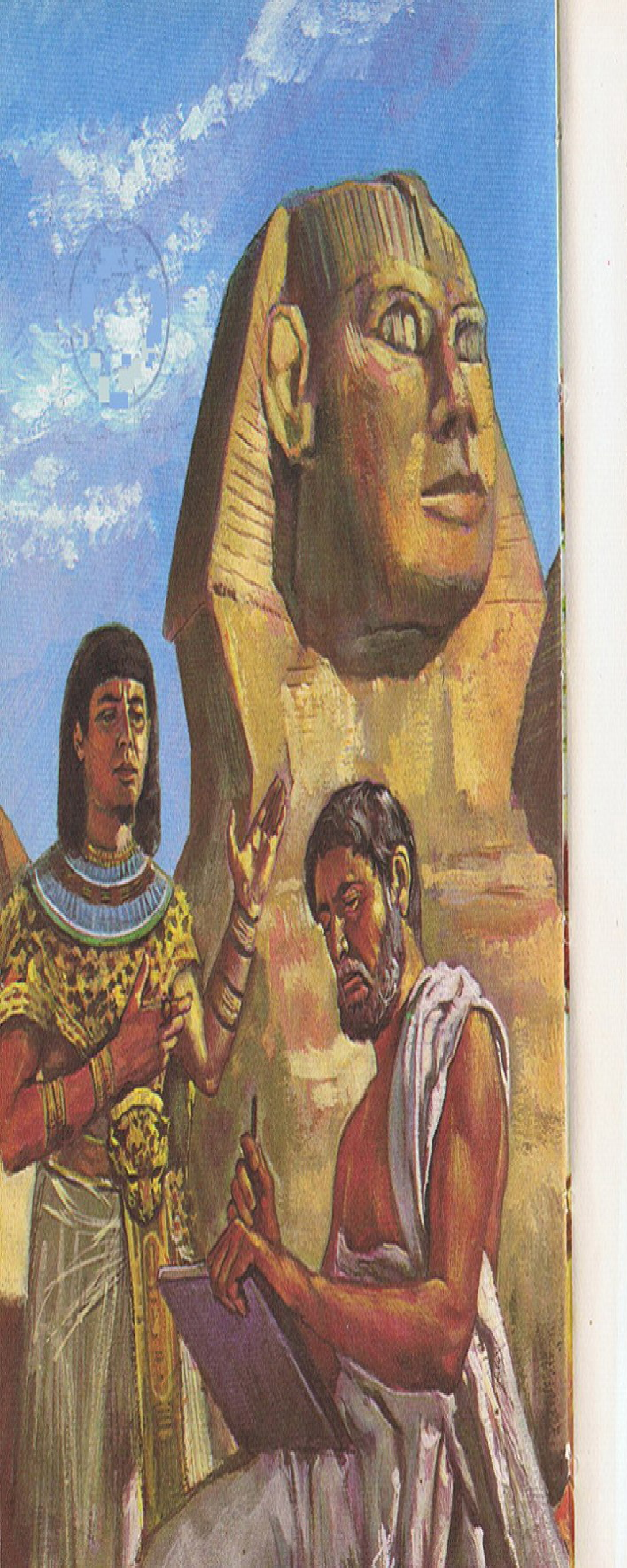
وضع الرسوم : جورج نونز

الناشرون:

مكتبة لبنان — بيروت

ليديبرد بوك ليمتد — لافبورو

لونغمان — هارلو



هيرودوتُ في مصرَ

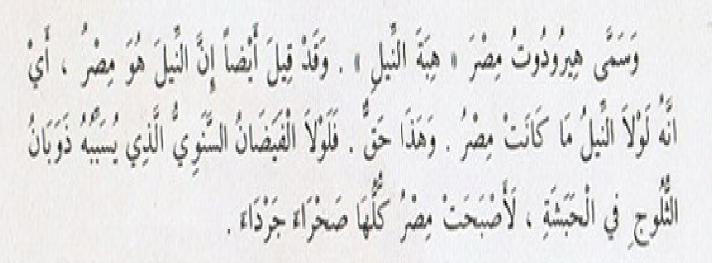
زارَ مصرَ حوالَى عامِ ٤٥٠ قبلَ الميلادِ ، كاتبٌ إغريقيٌّ شهيرٌ ، يُدعَى هيرودوتَ ، وكتبَ عنها كتاباً . ومعَ أنَّ هذهِ الزيارةَ تمَّتْ بعدَ أنْ ولَّتِ الفترةُ التي بلغَ فيها مجدُ مصرَ قمَّةَ أوجِهِ ، فإنَّ كتابَهُ يُعطينا صورةً رائعةً عنْ حضارةِ مصرَ في ذلكَ الوقتِ .

أنبأنا هيرودوتُ بأنَّهُ كانَ لدَى المصريِّينَ روائعُ أكثرُ ممَّا توجدُ لدَى أيِّ بلدٍ آخرَ ، وبأنَّ إنجازاتِهِمْ كانتْ تفوقُ الوصفَ . ولقدْ ذكرَ أنَّ نهرَ النيلِ يختلفُ عنْ كلِّ الأنهارِ الأخرى ووصفَ جوَّها الفريدَ . وذكرَ كذلكَ عاداتِ أهلِها وطُرُقَ معيشتِهِمْ ، واختلافَهُمْ عنِ الأقوامِ الآخرينَ .

واليومَ ، وبعدَ مرورِ ما يزيدُ على ألفَيْ عامٍ على هيرودوتَ ، يؤمنُ أولئكَ الذينَ يزورونَ مصرَ بعدَ مشاهدةِ الأهراماتِ ، وأبي الهولِ ، والتماثيلِ الضخمةِ ، وبقايا المعابدِ العظيمةِ ، أنَّ هيرودوتَ كانَ على حقٍّ فيما كتبَ . ولَوْ كانَ هيرودوتُ قدْ زارَ مصرَ قبلَ أنْ زارَها بألفَيْ سنةٍ أوْ ثلاثةِ آلافِ سنةٍ ، لوجدَ هناكَ شعباً متمدِّيناً يعيشُ في بلدٍ متحضِّرٍ .

ففي ذلكَ الوقتِ كانتِ الأهراماتُ قدْ بُنِيَتْ ، وأبو الهولِ قدْ نُحِتَ منَ الصخرِ الصُّلْبِ ، والكهنةُ يقيمونَ مراسمَ العبادةِ لآلهتِهِمِ العجيبةِ ، بينَما كانَ الأطبَّاءُ يمارسونَ اختباراتٍ لعلاجِ المرضَى ، نصحَ بها أبقراطُ الإغريقيُّ بعدَ ذلكَ بألفَيْ عامٍ . وكانَ يجلسُ على العرشِ ملكٌ ، كما كانَ هناكَ العُمَدُ والحكَّامُ لتنظيمِ الشؤونِ المحلِّيَّةِ ، وكانَ محصِّلو الضرائبِ يتنقَّلونَ منْ قريةٍ إلى قريةٍ . والجنودُ يسيرونَ في مواكبَ استعراضيَّةٍ ، وموظَّفو الدولةِ يؤدُّونَ أعمالَهُمُ الكتابيَّةَ . كانَ كلُّ هذا النشاطِ يسيرُ سيراً طبيعيّاً في مصرَ قبلَ ميلادِ المسيحِ بألفَيْ سنةٍ .

هيرودوتُ يسجِّلُ وصفَ مرشدِهِ لأبي الهولِ — وكانَ عمرُ أبي الهولِ في ذلكَ الوقتِ ٢٥٠٠ سنةٍ .



وَسَمَّى هِيرُودُوتُ مِصْرَ « هِبَةَ النِّيلِ » . وَقَدْ قِيلَ أَيْضاً إِنَّ النِّيلَ هُوَ مِصْرُ ، أَيْ أَنَّهُ لَوْلَا النِّيلُ مَا كَانَتْ مِصْرُ . وَهٰذَا حَقٌّ . فَلَوْلَا الْفَيَضَانُ السَّنَوِيُّ الَّذِي يُسَبِّبُهُ ذَوَبَانُ الثُّلُوجِ فِي الْحَبَشَةِ ، لَأَصْبَحَتْ مِصْرُ كُلُّهَا صَحْرَاءَ جَرْدَاءَ .

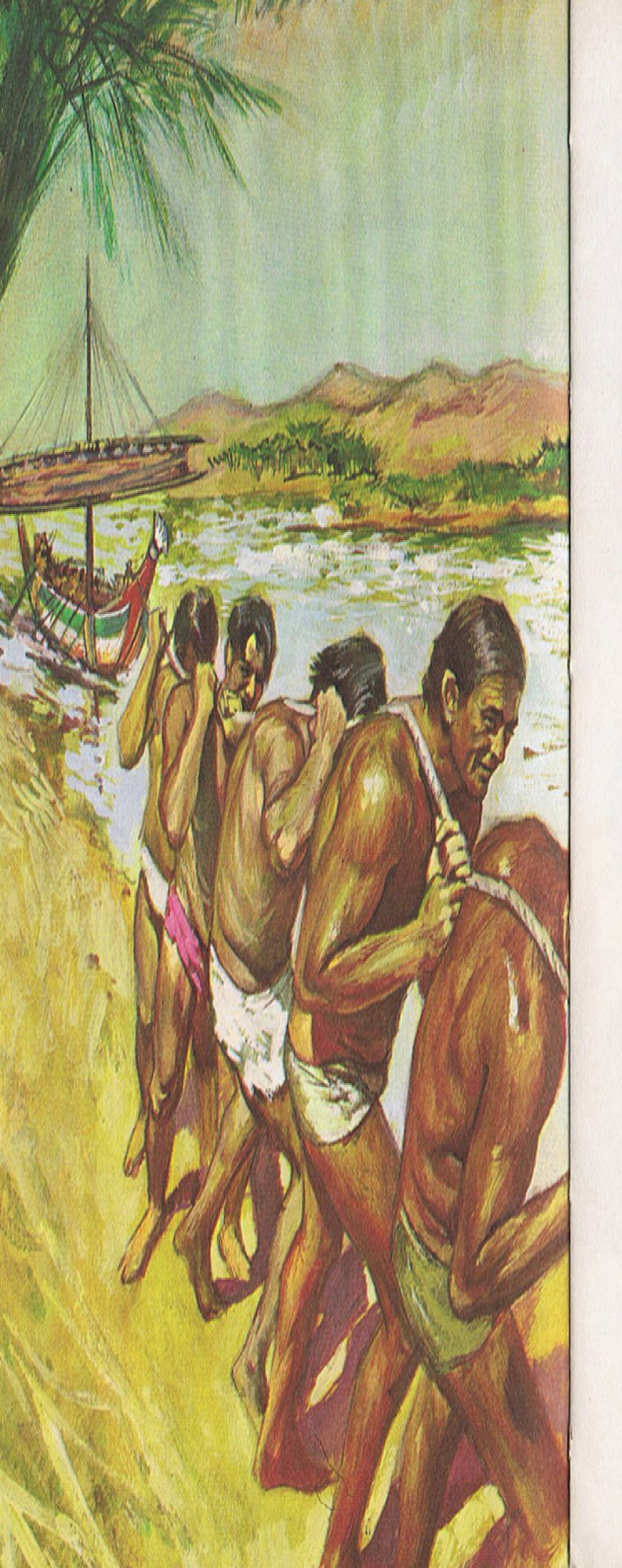
فَالنِّيلُ يُرَسِّبُ الطَّمْيَ الْخَصِيبَ الْأَسْوَدَ عَلَى الْأَرَاضِي الْمُسْتَوِيَةِ الْمُتَاخِمَةِ لِلنَّهْرِ ، إِلَى عُمْقٍ حَوَالَى ١٠ سنتيمترات فِي كُلِّ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ . وَقَدْ يَبْدُو هٰذَا ضَئِيلاً ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ هٰذَا الطَّمْيَ كَانَ يُلَبَّدُ بِالْأَقْدَامِ قَبْلَ حُلُولِ الْفَيَضَانِ التَّالِي . إِلَّا أَنَّهُ كَانَ كَافِياً لِسَدِّ حَاجَةِ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ وَإِعَانَتِهِ عَلَى الْحُصُولِ عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَحَاصِيلِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُهَا الْحَيَاةُ الْحَضَرِيَّةُ .

وَكَانَ الْقَمْحُ الْمَحْصُولَ الرَّئِيسِيَّ ، وَصَنَعَ مِنْهُ الْمِصْرِيُّونَ خُبْزاً يُشْبِهُ كَثِيراً خُبْزَ الْيَوْمِ . كَمَا صَنَعُوا نَوْعاً مِنَ الْجِعَةِ (الْبِيرَةِ) الْبِدَائِيَّةِ مِنْ حُبُوبِ الشَّعِيرِ ، وَاسْتَخْرَجُوا النَّبِيذَ مِنَ الْكُرُومِ الَّتِي زُرِعَتْ فِي دِلْتَا النِّيلِ — وَتُوجَدُ فِي الْمَقَابِرِ صُوَرٌ تُبَيِّنُ الْعِنَبَ وَهُوَ يُعْصَرُ فِي مَعَاصِرِ النَّبِيذِ ، وَيُعَبَّأُ فِي أَوَانٍ مُرَقَّمَةٍ بِعِنَايَةٍ ، لِمَعْرِفَةِ مَكَانِ صُنْعِ النَّبِيذِ وَزَمَنِهِ .

وَكَمَا كَانَ الْحَالُ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ ، قَبْلَ اسْتِخْرَاجِ السُّكَّرِ مِنْ قَصَبِ السُّكَّرِ ، اسْتُخْدِمَ الْعَسَلُ لِتَحْلِيَةِ الْأَطْعِمَةِ . وَكَانَتْ خَلَايَا النَّحْلِ مِنَ الْمَعَالِمِ الْبَارِزَةِ فِي الرِّيفِ .

وَزَرَعَ الْمِصْرِيُّونَ أَيْضاً الْبُقُولَ وَالْخُضَرَ مِثْلَ الْفُولِ وَالْحِمِّصِ ، وَكَانُوا مُولَعِينَ جِدّاً بِالْبَصَلِ ، وَالْكُرَّاثِ ، وَالثُّومِ ، وَالْخِيَارِ ، وَالْكُوسَا ، وَالْخَسِّ . وَبِالْإِضَافَةِ إِلَى الْعِنَبِ كَانَ لَدَيْهِمْ تِينٌ وَبَلَحٌ وَرُمَّانٌ ، كَمَا أَنَّهُمْ شُغِفُوا بِزَرْعِ الْأَزْهَارِ لِيُزَيِّنُوا بِهَا مَنَازِلَهُمْ ، وَلِيَصْنَعُوا مِنْهَا عُقُوداً يَتَزَيَّنُونَ بِهَا فِي الْحَفَلَاتِ .

جَمْعُ الْعَسَلِ مِنَ النَّحْلِ وَقَدْ كَانَ يُحْفَظُ فِي خَلَايَا مِنَ الْفَخَّارِ .



النَّقلُ والمُواصَلاتُ

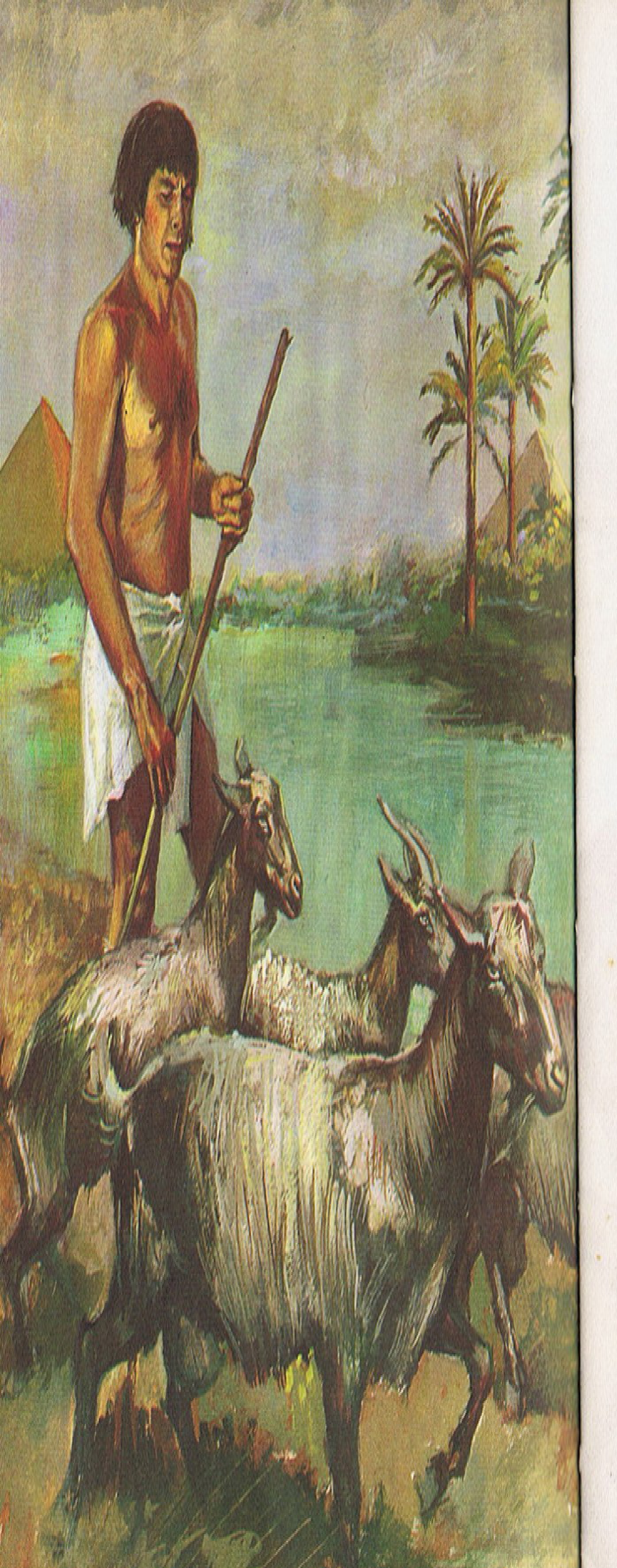
لَمْ يَغْمرِ النِّيلُ بِفَيَضانِهِ السَّنَوِيِّ الأَراضِيَ الزِّراعِيَّةَ المُتاخِمَةَ لَهُ فَحَسْبُ . بَلْ كانَ الطَّريقَ الرَّئيسَ الَّذي يَرْبطُ أَحَدَ أَطْرافِ البِلادِ بالطَّرَفِ الآخَرِ . وبَديهِيٌّ أَنَّ الطُّرُقَ تُصْبِحُ عَديمَةَ الفائِدَةِ حينَما يَغْمرُها الفَيَضانُ إِلى عُمْقٍ يَتَراوحُ بَيْنَ ٤,٨ و٦ أمتار طيلَةَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ كُلَّ عامٍ .

ولِذلِكَ أَحَسَّ المِصْرِيُّونَ بِحاجَتِهِمْ إِلى القَوارِبِ لِلإِبْحارِ بِواسِطَتِها ذَهاباً وإِياباً في النَّهْرِ . وكانَتْ قَوارِبُ الصَّيَّادينَ تُصْنَعُ مِنْ حُزَمِ البُوصِ مَرْبُوطاً بَعْضُها بِبَعْضٍ ، أَمَّا المَعابِرُ وقَوارِبُ الشَّحْنِ ، فَكانَتْ تُصْنَعُ مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ ، ولَمَّا كانَتْ شَجَرَةُ السَّنْطِ لا تَنْمُو مُسْتَقيمَةً ، كانَتْ أَلْواحُ الخَشَبِ قَصيرَةً — طُولُها نَحْوَ ٦١ سم . وكانَتْ تُوصَلُ بَعْضُها بِبَعْضٍ بِطَريقَةِ التَّعْشيقِ .

وقَدْ قالَ هيرُودُوتُ في وَصْفِ القَوارِبِ « كانَ لَها صارٍ ، ودَفَّةٌ واحِدَةٌ ، وأَشْرِعَةٌ مَصْنُوعَةٌ مِنَ النَّسيجِ ، ولا تَقْوى عَلى الإِبْحارِ عَكْسَ التَّيَّارِ إِلاَّ إِذا هَبَّتْ رِياحٌ قَوِيَّةٌ نَوْعاً . ولكِنَّها تُجَرُّ بِحَبْلٍ مِنَ الشَّاطِىءِ . وعِنْدَما يَحْمِلُها التَّيَّارُ في اتِّجاهِهِ ، تَسْحَبُ خَلْفَها حَجَراً كَبيراً مَرْبُوطاً بِحَبْلٍ في مُؤَخَّرَتِها . وهذا يُساعِدُ عَلى سَيْرِها في الاتِّجاهِ الصَّحيحِ . وعِنْدَما تُصْبِحُ مِصْرُ بِأَجْمَعِها كَأَنَّها بُحَيْرَةٌ كَبيرَةٌ ، يَغْدُو الطَّريقُ مِنْ مَكانٍ إِلى آخَرَ أَكْثَرَ اسْتِقامَةً . فَتَبْرُزُ المُدُنُ وكَأَنَّها الجُزُرُ في بَحْرِ إيجَةَ » . وكَثيرٌ مِنْ نَماذِجِ السُّفُنِ الَّتي وُجِدَتْ في المَقابِرِ لَها صُفُوفٌ مِنَ المَجاذيفِ المُلَوَّنَةِ بِالأَلْوانِ الزَّاهِيَةِ والمُذَهَّبَةِ . ومِمَّا لا شَكَّ فيهِ أَنَّ النِّيلَ كانَ طَريقاً رَئيسِيّاً يَزْخَرُ بِالحَرَكَةِ .

كانَتْ تُبْحِرُ مَراكِبُ أُخْرى عَبْرَ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ إِلى سُورِيَةَ وقُبْرُصَ . وكانَتْ أَكْبَرَ حَجْماً ، ومَصْنُوعَةً مِنْ أَلْواحِ خَشَبِ الأَرْزِ المستورَدِ مِنْ بِيبْلُوسَ ، وهِيَ ميناءٌ في لُبْنانَ يُطْلَقُ عَلَيْها حالِيّاً اسْمُ « جُبَيْل » .

سَحْبُ قارِبٍ عَكْسَ التَّيَّارِ .



الْحَيَوَانَاتُ

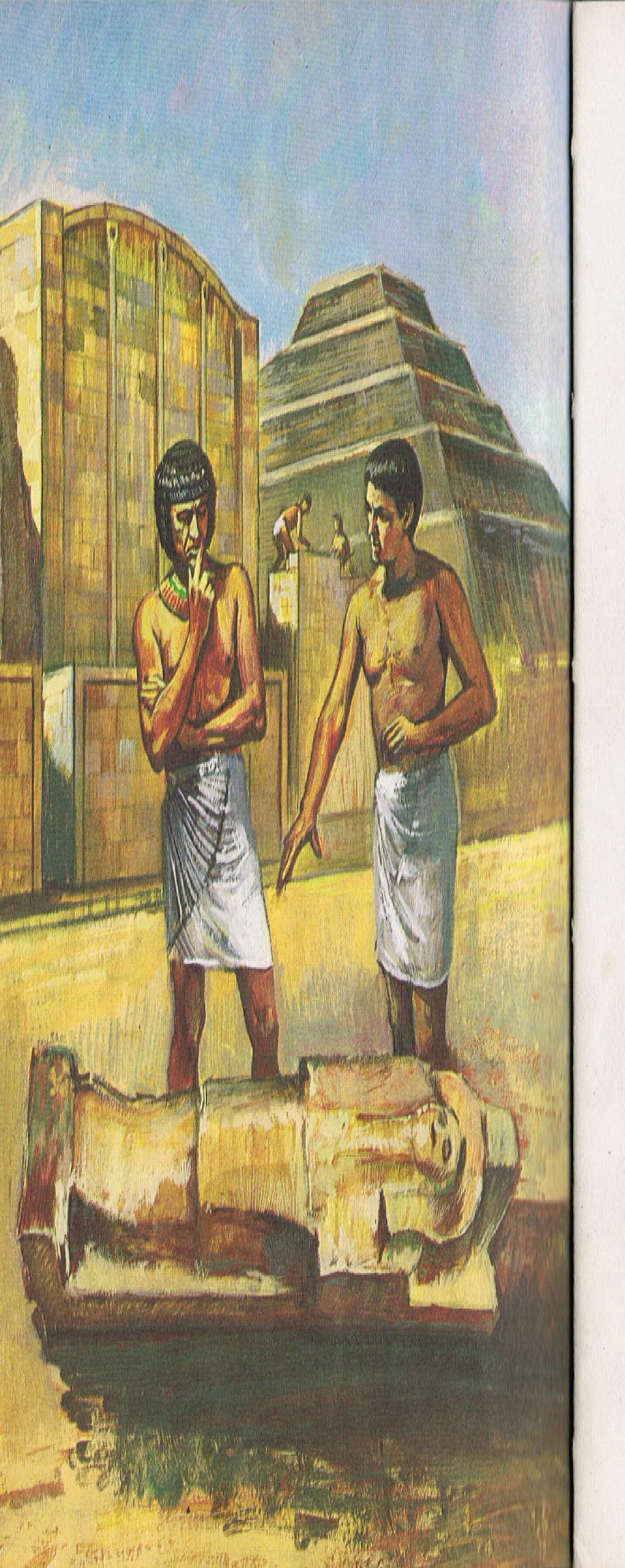
يَظْهَرُ فِي رُسُومِ الْمِصْرِيِّينَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ مُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، بَعْضُهَا أَلِيفٌ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْكَبِيرَةِ الْبَرِّيَّةِ كَانَتْ تُوجَدُ كَذَلِكَ فِي وَادِي النِّيلِ . وَكَانَتِ الْقِطَطُ وَالْكِلَابُ أَحَبَّ الْحَيَوَانَاتِ الْمُدَلَّلَةِ وَكِلَاهُمَا كَانَ يُسْتَعْمَلُ لِلصَّيْدِ . أَمَّا الثِّيرَانُ فَقَدِ اسْتُخْدِمَتْ فِي جَرِّ الْمِحْرَاثِ وَالْأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ الْأُخْرَى ، بَيْنَمَا كَانَتِ الْحَمِيرُ تَحْمِلُ الْأَثْقَالَ الصَّغِيرَةَ . وَلَمْ تَكُنِ الْجِمَالُ شَائِعَةً كَمَا هِيَ الْيَوْمَ .

وَاقْتُنِيَتْ قُطْعَانُ الْمَوَاشِي لِلِانْتِفَاعِ بِأَلْبَانِهَا وَلُحُومِهَا ، وَتَكَاثَرَتِ الْمَاعِزُ فِي الْمَرَاعِي الْبَرِّيَّةِ . أَمَّا الْأَغْنَامُ فَلَمْ تَكُنْ كَثِيرَةً . وَكَانَ يُنْظَرُ إِلَى الْخَنَازِيرِ عَلَى أَنَّهَا حَيَوَانَاتٌ نَجِسَةٌ فِي أَكْثَرِ الْبِقَاعِ ، وَقَدْ يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ لُحُومَهَا تَحْتَاجُ فِي تَجْهِيزِهَا إِلَى عِنَايَةٍ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ آخَرَ مِنَ اللُّحُومِ ، هَذَا إِلَى أَنَّ لَحْمَهَا يَتْلَفُ بِسُرْعَةٍ فِي الْجَوِّ الْحَارِّ ، وَيُسَبِّبُ الْمَرَضَ . وَأُولِعَ الْمِصْرِيُّونَ بِأَكْلِ السَّمَكِ ، الَّذِي كَانَ يُوجَدُ بِكَمِّيَّاتٍ كَبِيرَةٍ فِي النِّيلِ . وَيُرَجَّحُ أَنَّهُمُ احْتَفَظُوا بِأَسْمَاكِ الزِّينَةِ فِي بِرَكِ حَدَائِقِهِمْ .

وَعَاشَ التِّمْسَاحُ وَفَرَسُ النَّهْرِ فِي النِّيلِ ، وَكَانَ كِلَاهُمَا شَدِيدَ الْخَطَرِ ، وَعَبَدَهُمَا الْمِصْرِيُّونَ أَمَلاً مِنْهُمْ فِي دَرْءِ بَعْضِ الْخَطَرِ . وَلِنَفْسِ الْغَرَضِ عَبَدُوا الْأُسُودَ الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُ عَلَى حَافَةِ الْوَادِي ، وَبَنَاتِ آوَى الَّتِي كَانَتْ تُرَى كَثِيراً وَهِيَ تَحُومُ حَوْلَ الْمَقَابِرِ .

وَتَعَلَّقَ الْمِصْرِيُّونَ بِالْجُعْرَانِ (نَوْعٍ مِنَ الْخَنَافِسِ) ، لِأَنَّهُمُ اعْتَقَدُوا أَنَّ هُنَاكَ جُعْرَاناً ضَخْماً يَدْفَعُ الشَّمْسَ عَبْرَ السَّمَاءِ . وَعَمِلُوا مِنَ الْجُعْرَانِ نَمَاذِجَ اسْتَعْمَلُوهَا كَتَمَائِمَ لِجَلْبِ الْحَظِّ ، وَكَثِيراً مَا كَانُوا يَحْفِرُونَ أَسْمَاءَهُمْ عَلَى الْجِهَةِ الْمُسَطَّحَةِ السُّفْلَى مِنْهُ ، وَيَسْتَعْمِلُونَهُ كَمَا نَسْتَعْمِلُ نَحْنُ الْخَاتَمَ عَلَى الشَّمْعِ . فَكَانُوا يَخْتِمُونَ الْخِطَابَاتِ وَالْأَبْوَابَ بِوَضْعِ قَلِيلٍ مِنَ الطِّينِ فَوْقَ عُقْدَةٍ مِنْ خَيْطِ قِنَّبٍ ثُمَّ ضَغْطِ الْجُعْرَانِ فَوْقَهَا بِقُوَّةٍ .

سَوْقُ الْمَاعِزِ إِلَى الْمَرْعَى .



الْمَمْلَكَةُ الْقَدِيمَةُ (٢٦٠٠ — ٢٢٨٠ قَبْلَ الْمِيلادِ)

تَرْجِعُ حَضَارَةُ مِصْرَ إِلَى عَهْدٍ بَعِيدٍ جِدّاً . وَقَدْ أَطْلَعَ هِيرُودُتُ عَلَى قَائِمَةٍ تَضُمُّ ثَلاثَمِئَةٍ وَثَلاثِينَ مَلِكاً ، حَكَمُوا مِصْرَ قَبْلَ عَامِ ٢٥٠٠ قَبْلَ الْمِيلادِ . وَفِي عَصْرِنَا هٰذَا عَثَرَ عُلَمَاءُ الآثَارِ ، فِي أَثْنَاءِ تَنْقِيبِهِمْ فِي دِلْتَا النِّيلِ ، عَلَى مَعَالِمِ حَضَارَةٍ بِدَائِيَّةٍ تَرْجِعُ إِلَى سِتَّةِ آلافِ عَامٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ .

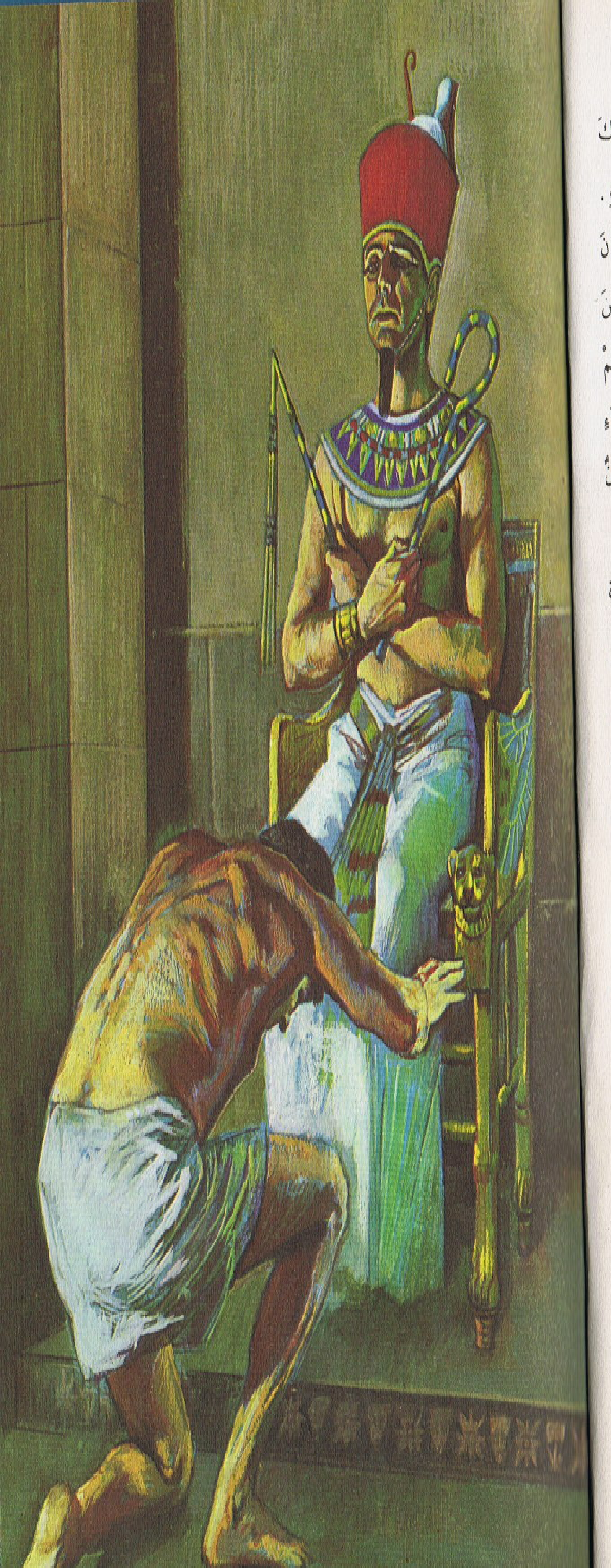
وَيَنْقَسِمُ التَّارِيخُ الْمِصْرِيُّ إِلَى ثَلاثِينَ عَائِلَةً حَاكِمَةً تُعْرَفُ بِالأُسَرِ — وَهِيَ مُجَمَّعَةٌ فِي ثَلاثِ فَتَرَاتٍ رَئِيسِيَّةٍ ، وَهِيَ الْمَمْلَكَةُ الْقَدِيمَةُ وَالْوُسْطَى وَالْحَدِيثَةُ .

وَأَوَّلُ مَلِكٍ (أَوْ فِرْعَوْنٍ) نَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئاً عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ كَانَ يُدْعَى مِينَا . وَلاَ نَعْلَمُ بِالضَّبْطِ تَارِيخَ حُكْمِهِ . وَلَوْ أَنَّهُ مِنَ الْمُرَجَّحِ أَنَّهُ حَكَمَ مُنْذُ حَوَالَى ثَلاثَةِ آلافِ سَنَةٍ قَبْلَ الْمَسِيحِ . وَمِنَ الْمُعْتَقَدِ أَنَّ مِينَا هُوَ مُؤَسِّسُ مَدِينَةِ مَمْفِيسَ الْعَظِيمَةِ عِنْدَ مُلْتَقَى دِلْتَا النِّيلِ قُرْبَ مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ الْحَدِيثَةِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَحَّدَ جُزْءَيِ الْقُطْرِ .

وَفِي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْمُبَكِّرَةِ جِدّاً ، ارْتَفَعَتْ حَضَارَةُ مِصْرَ إِلَى قِمَّةٍ عَالِيَةٍ جِدّاً . فَكَانَتِ الْفُنُونُ تُشَجَّعُ — كَمَا شُيِّدَتِ الْمَبَانِي الَّتِي تُعَدُّ مِنْ رَوَائِعِ الْفَنِّ الْمِعْمَارِيِّ إِذَا قِيسَتْ بِمَعَايِيرِنَا الْعَصْرِيَّةِ . كَانَتِ النَّمَاذِجُ الزُّخْرُفِيَّةُ وَالصُّوَرُ تُنْحَتُ وَتُرْسَمُ عَلَى جُدْرَانِ الْمَقَابِرِ ، وَسُرْعَانَ مَا تَطَوَّرَتِ الْكِتَابَةُ حَتَّى بَلَغَتْ دَرَجَةً رَفِيعَةً .

كَانَ ذٰلِكَ هُوَ الْعَصْرَ الَّذِي تَمَّ فِيهِ بِنَاءُ الأَهْرَامَاتِ ، الَّتِي كَانَتْ مِنْ بَيْنِ أُولَى الْمُنْشَآتِ الَّتِي أُقِيمَتْ مِنَ الْحَجَرِ فِي أَيِّ بُقْعَةٍ مِنْ بِقَاعِ الْعَالَمِ . وَمَا يَدْعُو لِلإِعْجَابِ فِعْلاً أَنَّ مِثْلَ هٰذِهِ الأَبْنِيَةِ الضَّخْمَةِ — الَّتِي ترتفعُ الى عُلُوٍّ يفوق ارتفاع كاتدرائيَّةِ الْقِدِّيسِ بُولُسَ — قَدْ أُنْجِزَتْ بِخِبْرَةٍ قَلِيلَةٍ جِدّاً . وَقَدْ بُنِيَ أَوَّلُ هَرَمٍ عَلَى شَكْلٍ مُدَرَّجٍ . وَلٰكِنَّ هَرَمَيْ خُوفُو وَخَفْرَعَ كَانَتْ لَهُمَا جَوَانِبُ مَلْسَاءُ مِنَ الْحَجَرِ الأَعْبَلِ (الغرانيتِ) الأَسْوَدِ . وذُروتان بيضاوان لامعتان .

أَصْحَبَ الْمُهَنْدِسُ الْمِعْمَارِيُّ يَتَأَمَّلُ تِمْثَالاً بَيْنَمَا يَجْرِي الْعَمَلُ قُدُماً فِي بِنَاءِ الْهَرَمِ الأَوَّلِ



حُكُومَةُ مِصْرَ

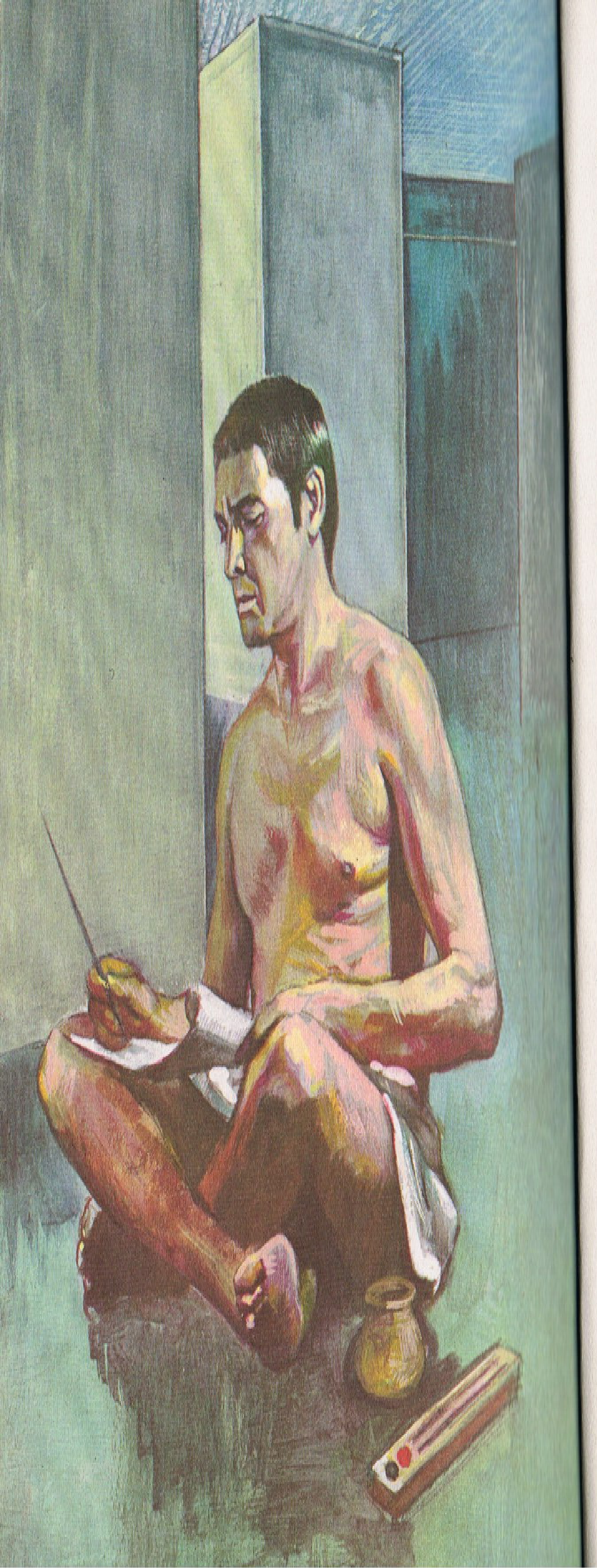
كَانَ يُطْلَقُ عَلَى حَاكِمِ مِصْرَ عَادَةً اسْمُ « مَلِكِ مِصْرَ الْعُلْيَا وَالسُّفْلَى » . ذَلِكَ لِأَنَّ جُزْءَيِ الْقُطْرِ كَانَ يُنْظَرُ إِلَيْهِمَا عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهُمَا مَمْلَكَتَانِ مُنْفَصِلَتَانِ كُلَّ الِانْفِصَالِ. كَانَ الْمَلِكُ يَحْكُمُ كَمَا يَحْلُو لَهُ . وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَجْلِسُ نُوَّابٍ (بَرْلَمَانٌ) . وَكَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَى الشَّعْبِ أَنْ يَتَقَبَّلَ الْقَوَانِينَ الَّتِي يُصْدِرُهَا الْمَلِكُ . وَكَانَ بَعْضُ الْمُلُوكِ صَارِمِينَ فَأَتَاحُوا لِلشَّعْبِ قَلِيلاً مِنَ الْحُرِّيَّةِ . وَلَكِنَّ مُعْظَمَهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ لَهُمْ أَنْ يَحْكُمُوا بِحَزْمٍ ، وَلَكِنْ بِرِفْقٍ . وَيَهْتَمُّوا بِشُؤُونِ رَعَايَاهُمْ . وَأَطْلَقَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَحْيَاناً اسْمَ الرَّاعِي . وَكَانَتْ لَهُمْ صُوَرٌ يَبْدُونَ فِيهَا وَبِيَدِهِمْ صَوْلَجَانٌ عَلَى هَيْئَةِ عَصَا الرَّاعِي .

وَكَانَ يَلِي الْمَلِكَ فِي الْمَرْتَبَةِ وَزِيرَانِ ، كَرَئِيسَيْنِ لِلْوِزَارَةِ ، والواحد مِنْهُمَا يَرْأَسُ وزارة إِحْدَى الْمَمْلَكَتَيْنِ . وَكَانَ الْوَزِيرُ يَقُومُ بِتَنْفِيذِ الْقَوَانِينِ ، وَيَحُلُّ الْمُنَازَعَاتِ الَّتِي يَعْجِزُ الْمُوَظَّفُونَ الرَّسْمِيُّونَ الْمَحَلِّيُّونَ عَنْ حَلِّهَا . وَكَانَ هُنَاكَ مُسْتَشَارٌ يَقُومُ بِجَمْعِ الضَّرَائِبِ الَّتِي كَانَتْ تُدْفَعُ قَمْحاً أَوْ مَاشِيَةً أَوْ بَضَائِعَ أُخْرَى ، لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ نُقُودٌ . وَتَطَلَّبَتْ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ جُهْداً كَبِيراً . وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ إِيجَادِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْكَتَبَةِ كَيْ يَقُومُوا بِهَذِهِ الْمَهَامِّ بِصِفَةِ مُسَاعِدِينَ .

وَكَانَتْ مِصْرُ مُقَسَّمَةً إِلَى أَقَالِيمَ تُسَمَّى وِلَايَاتٍ ، يَحْكُمُهَا وُلَاةٌ نِيَابَةً عَنِ الملك . أَمَّا الْمُدُنُ الصَّغِيرَةُ وَالْقُرَى فَكَانَ يُشْرِفُ عَلَيْهَا عُمَدٌ . وَكَانَ لِهَؤُلَاءِ الرِّجَالِ فِي الْغَالِبِ أَرَاضٍ شَاسِعَةٌ يَسْتَخْدِمُونَ فِيهَا عَدَداً كَبِيراً مِنَ النَّاسِ . وَكَانَ لِلْفَلَّاحِينَ حُقُولُهُمُ الْخَاصَّةُ ، بَيْدَ أَنَّهُمْ كَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا فِي أَرْضِ حَاكِمِ الْإِقْلِيمِ . وَفِي اسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نُشَبِّهَهُم بِالْعَبِيدِ . وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْحَاكِمُ رَجُلاً عَادِلاً . فَمِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ ذَلِكَ الْوَضْعِ ؛ إِذْ إِنَّهُ كَانَ فِي أَوْقَاتِ الضِّيقِ يَتَوَلَّى الدِّفَاعَ عَنْهُمْ وَرِعَايَتَهُمْ .

وَكَانَ لِلْمَلِكِ فِي مَمْفِيس وَطِيبَةَ قَصْرٌ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسم « الْمَنْزِلِ الْكَبِيرِ » وَيُسَمِّيهِ الْمِصْرِيُّونَ بِلُغَتِهِمْ (بيراوه) . وَمِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ اشْتُقَّتْ كَلِمَةُ فِرْعَوْنَ ، الَّتِي مَا لَبِثَتْ أَنْ أُطْلِقَتْ عَلَى الشَّخْصِ الَّذِي يَعِيشُ فِي ذَلِكَ الْقَصْرِ .

الْمَلِكُ وَعَلَى رَأْسِهِ التَّاجُ الْمُزْدَوَجُ يَسْتَمِعُ إِلَى طَلَبٍ يَتَقَدَّمُ بِهِ أَحَدُ رَعَايَاهُ .



اَلْمَمْلَكَةُ الْوُسْطَى (مِنْ ٢١٠٠ إِلَى ١٨٠٠ قَبْلَ الْمِيلَادِ)

كَانَتْ هُنَاكَ اضْطِرَابَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي مِصْرَ نَحْوَ عَام ٢٢٥٠ قَبْلَ الْمِيلَادِ ، لأَنَّ النُّبَلَاءَ أَصْبَحُوا فِي مُنْتَهَى الْقُوَّةِ ، وَحَاوَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفَ كَمَلِكٍ فِي الْمِنْطَقَةِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا . وَفِي النِّهَايَةِ تَمَكَّنَ مَلِكٌ قَوِيٌّ مِنْ إِعَادَةِ الْقَانُونِ وَالنِّظَامِ ، وَبِذَلِكَ أُتِيحَ لِمِصْرَ قِيَامُ حُكُومَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ فِيهَا لِفَتْرَةٍ مَا . وَيُطْلَقُ عَلَى هَذِهِ الْفَتْرَةِ اسْمُ الْمَمْلَكَةِ الْوُسْطَى .

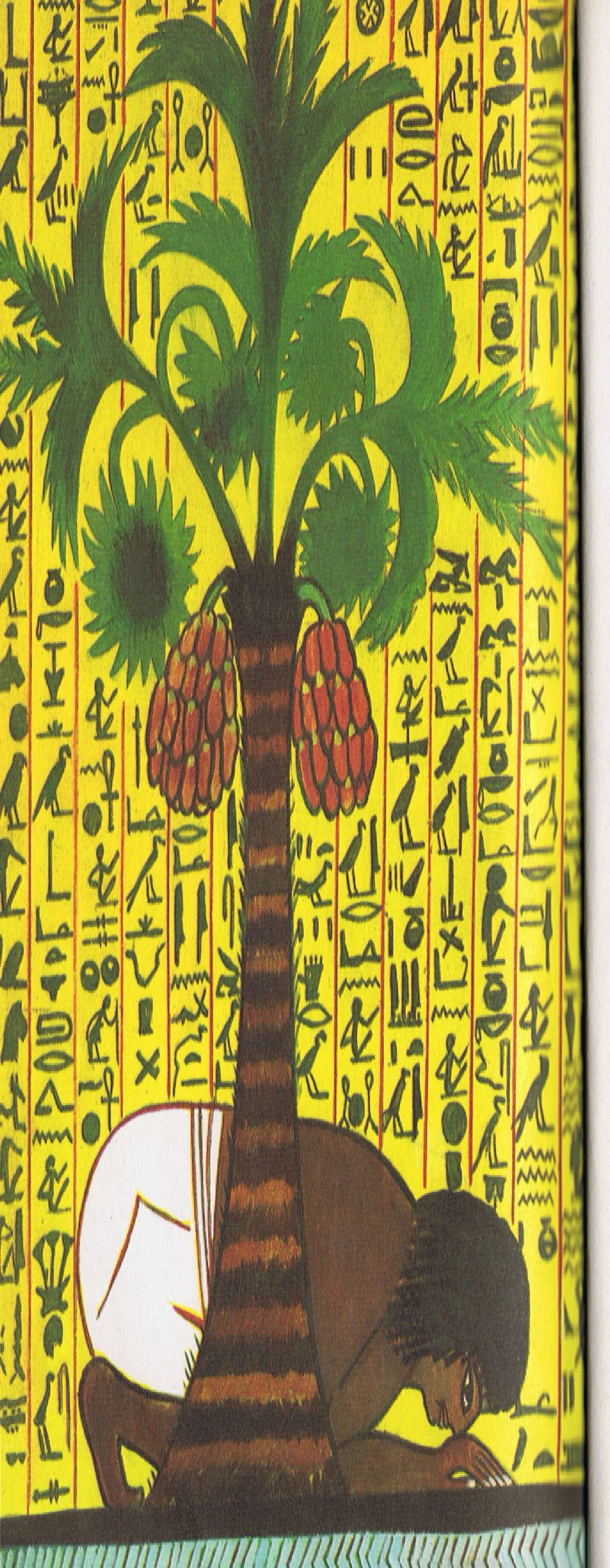
كَانَتِ السُّلْطَةُ الْحَاكِمَةُ خِلَالَ ذَلِكَ الْعَصْرِ تَعْتَمِدُ بِشِدَّةٍ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمُوَظَّفِينَ الرَّسْمِيِّينَ مُهِمَّتُهَا تَنْفِيذُ التَّعْلِيمَاتِ وَجَمْعُ الضَّرَائِبِ . وَفُتِحَتِ الْمَدَارِسُ لِتَدْرِيبِ الصِّبْيَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِوَظَائِفِ الْكَتَبَةِ . وَكَانَتِ الدُّرُوسُ الَّتِي يَتَلَقَّوْنَهَا مَكْتُوبَةً فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ عَلَى أَلْوَاحٍ مِنَ الْخَشَبِ ، أَوْ مِنَ الْحَجَرِ الْجِيرِيِّ أَوِ الْفَخَّارِ .

كَانَ الصِّبْيَةُ يَكْتُبُونَ بَعْضَ الْقِصَصِ وَالْقَصَائِدِ كَجُزْءٍ مِنَ الْمَوَادِّ الَّتِي يَتَعَلَّمُونَهَا ، كَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْسَخُونَ بَعْضَ الْخِطَابَاتِ مِنْ طِرَازِ الْخِطَابَاتِ الَّتِي كَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكْتُبُوهَا فِي حَالَةِ تَسَلُّمِهِمْ عَمَلاً مَا . وَكَثِيراً مَا كَانَتْ تُوجَدُ خِطَابَاتٌ تُشِيدُ بِعَمَلِ الْكَاتِبِ ، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ لَيْسَ شَاقّاً مِثْلَ عَمَلِ الْحِرَفِيِّ أَوِ الْفَلَّاحِ .

وَقَدْ أَصْبَحَ كَثِيرٌ مِنَ الصِّبْيَةِ كَتَبَةً فِعْلاً ، يَعْمَلُونَ لِحِسَابِ الْحُكُومَةِ . وَكَانُوا يَحْتَفِظُونَ بِسِجِلَّاتٍ سَطَّرُوا فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يُفَكِّرُوا فِيهِ ، وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَقْرَأَ الْيَوْمَ بَيَانَاتِهِم عَنِ الْمُنَازَعَاتِ وَالْوَصَايَا وَالضَّرَائِبِ وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ .

وَتَقُصُّ عَلَيْنَا هَذِهِ السِّجِلَّاتُ الْكَثِيرَ عَنِ الْمِصْرِيِّينَ وَحَيَاتِهِمْ وَدَرَجَةِ حَضَارَتِهِمْ مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ . وَكَانَتْ كِتَابَاتُهُمْ كَذَلِكَ مَحْفُورَةً عَلَى الْجُدْرَانِ وَالأَعْمِدَةِ تَسْرُدُ الْمَوَاقِعَ الْحَرْبِيَّةَ ، وَتَصِفُ الْمَبَانِيَ الْمُقَامَةَ وَالأَحْدَاثَ الْمُهِمَّةَ الأُخْرَى .

كَاتِبٌ يَجْلِسُ فِي مَكْتَبِهِ ، وَالْبَرْدِيُّ عَلَى رُكْبَتِهِ . وَإِلَى جِوَارِهِ مِقْلَمَةٌ وَمِحْبَرَةٌ .



الْكِتَابَةُ وَفَنُّ التَّصْوِيرِ

بِفَضْلِ جَوِّ مِصْرَ الْجَافِّ ، أَمْكَنَ حِفْظُ قِصَصٍ وَخِطَابَاتٍ وَكُتُبٍ دِرَاسِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ مُنْذُ آلافِ السِّنِينَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مُسْتَنَدَاتٍ أُخْرَى مَكْتُوبَةٍ عَلَى أَوْرَاقِ الْبَرْدِيِّ . وَكَانَ وَرَقُ الْبَرْدِيِّ يُصْنَعُ مِنْ سِيقَانِ النَّبَاتِ الْمُسَمَّى بِنَفْسِ الاسْمِ ، وَمِنْ كَلِمَةِ « بَابِيرُوسَ » الإِنْجِلِيزِيَّةِ وَمَعْنَاهَا بَرْدِيّ اشْتُقَّ اسم الورق باللُّغات اللاتينية والاغريقية واللغات الغربيّة المُعَاصِرة ، وَلَوْ أَنَّ الْوَرَقَ الْيَوْمَ لاَ يُصْنَعُ مِنَ الْبَرْدِيِّ .

وَطَرِيقَةُ تَجْهِيزِ هٰذَا « الْوَرَقِ » الْمَتِينِ سَبَقَ أَنْ شُرِحَتْ فِي كِتَابِ (ليديبرد) عَنْ كِلْيُوبَاتْرَة . كَانَتْ سِيقَانُ النَّبَاتِ تُقْطَعُ شَرَائِحَ رَفِيعَةً ، يُوضَعُ بَعْضُهَا جَنْباً إِلَى جَنْبٍ ، وَالبَعْضُ الآخَرُ فَوْقَهَا بِشَكْلٍ يَتَعَارَضُ مَعَهَا ، بِحَيْثُ يُكَوِّنُ زَوَايَا قَائِمَةً . ثُمَّ تُطْرَقُ عَلَى حَجَرٍ مُسَطَّحٍ ، وَتُجَفَّفُ فِي الشَّمْسِ ، ثُمَّ تُحَكُّ بِمِدْلَكٍ مِنَ الْعَاجِ لِصَقْلِهَا .

أَمَّا الْحِبْرُ وَالْأَلْوَانُ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا قُدَمَاءُ الْمِصْرِيِّينَ . فَكَانَتْ مُخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانِ ، وَقَدِ اسْتَخْرَجُوا اللَّوْنَ الْأَسْوَدَ مِنَ السناج (الْهِبَابِ) . وَالْأَحْمَرَ وَالْأَصْفَرَ مِنْ تُرَابِ الصُّخُورِ النَّاعِمِ ، بَيْنَمَا اسْتَخْرَجُوا اللَّوْنَيْنِ الْأَزْرَقَ وَالْأَخْضَرَ مِنَ النُّحَاسِ . وَكَانَتِ الْأَلْوَانُ تُمْزَجُ بِصَمْغٍ خَفِيفٍ . وَفِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ بِزُلاَلِ الْبَيْضِ . وَكَثِيرٌ مِنْ مَخْطُوطَاتِ الْبَرْدِيِّ الرَّائِعَةِ الزَّخْرَفَةِ ما زَالَت وَاضِحَةً زَاهِيَةَ الْأَلْوَانِ . كَمَا كَانَتْ عِنْدَمَا سَطَّرَهَا الْكَتَبَةُ الْمِصْرِيُّونَ بِصَبْرٍ عَظِيمٍ . وَهٰذِهِ الطُّرُقُ الَّتِي كَانَتْ مُتَّبَعَةً لِصُنْعِ صَفَحَاتٍ لِلْكِتَابَةِ عَلَيْهَا وَتَجْهِيزِ أَنْوَاعِ الْمِدَادِ لِلتَّدْوِينِ وَالزَّخْرَفَة عَلَى تِلْكَ الصَّفَحَاتِ كَانَتْ مُسْتَعْمَلَةً مُنْذُ آلافِ السِّنِينَ .

صُورَةٌ عَلَى قَبْرٍ تُبَيِّنُ رَجُلاً يَشْرَبُ مِنْ بِرْكَةٍ . وَعَلَى حَائِطِ الْقَبْرِ كِتَابَةٌ هِيرُوغْلِيفِيَّةٌ زَاهِيَةُ الْأَلْوَانِ .



الْهِيرُوغْلِيفِيَّةُ

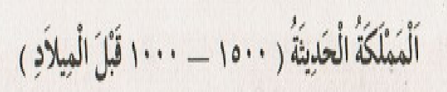
لَفْظَةُ هِيرُوغْلِيف مَعْنَاهَا « الْعَلامَةُ الْمُقَدَّسَةُ الْمَحْفُورَةُ » . والهيروغليفيَّةُ اسْمٌ أُطْلِقَ عَلَى كِتَابَةِ الْمِصْرِيِّينَ ؛ لأَنَّهَا كَثِيراً مَا كَانَتْ تُحْفَرُ عَلَى جُدْرَانِ الْمَعَابِدِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ كَثِيراً مِنْهَا لَمْ يُنْقَشْ ، بَلْ كُتِبَ بِالْحِبْرِ بِقِطْعَةٍ مِنَ « الْغَابِ » بَدَلاً مِنَ الْقَلَمِ ، أَوْ كَانَ يُرْسَمُ بِالأَلْوَانِ عَلَى جُدْرَانِ الْمَقَابِرِ وَغَيْرِهَا مِنَ النُّصُبِ التَّذْكَارِيَّةِ . وَحِينَ كَانَ الْمِصْرِيُّونَ يَكْتُبُونَ عَلَى أَوْرَاقِ الْبَرْدِيِّ كَانُوا يَسْتَخْدِمُونَ شَكْلاً أَسْهَلَ فِي الْكِتَابَةِ هُوَ الهيرُوطِيقِيَّةُ .

وَكَانَتْ بَاكُورَةُ كِتَابَاتِهِم ، عِبَارَةً عَنْ عَلامَاتٍ مُصَوَّرَةٍ . فَكَانَتْ تُرْسَمُ صُورَةُ الشَّيْءِ ، أَوْ فِكْرَةٌ لَها صِلَةٌ قَرِيبَةٌ بِهِ . فَمَثَلاً ⊙ (الشَّمْس) تَدُلُّ عَلَى لَفْظِ نَهَارٍ ، و ▭ تَعْنِي يَداً ، و ⊓ تَعْنِي مَنْزِلاً . وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا فَطِنُوا إِلَى أَنَّ الْعَلامَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَدُلَّ عَلَى « صَوْتِ » اسْمِ الشَّيْءِ ، وَبِالتَّالِي يُمْكِنُ أَنْ تَحْمِلَ مَعْنًى لا يُمْكِنُ رَسْمُهُ بِسُهُولَةٍ . وبِذَلِكَ نَشَأَتْ عَلامَاتُ « الأَصْوَات » — فَمَثَلاً : الْكَلِمَةُ الْمُسْتَعْمَلَةُ « لِمَنْزِلٍ » كَانَتْ لَفْظَةَ « بير » وكَذَلِكَ كَلِمَةُ « يَخْرج » = بير أَيْضاً . وَلِذَا كَتَبُوا ⊓ Λ مُمَيِّزِينَ كَلِمَةَ « يَخْرُج » بِوَضْعِ رَسْمِ سَاقَيْنِ إِلَى جَانِبِ رَسْمِ مَنْزِلٍ .

وَاللُّغَةُ الْمِصْرِيَّةُ الْقَدِيمَةُ مُعَقَّدَةٌ — إِذْ تُوجَدُ فِيهَا مِئَاتُ الْعَلامَاتِ . وَمَعَ وُجُودِ عَلامَاتٍ لِكُلِّ الأَصْوَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ ، لَمْ يُدْرِكِ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُ يُمْكِنُ الاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنْهَا ، وَالْوُصُولُ إِلَى حُرُوفٍ هِجَائِيَّةٍ مُبَسَّطَةٍ .

وفي أَثْنَاءِ عَمَلِيَّاتِ نَابُلْيُون الْحَرْبِيَّةِ فِي مِصْر ، وُجِدَ حَجَرٌ فِي رَشِيد ، عَلَيْهِ كِتَابَةٌ مَحْفُورَةٌ . وكَانَتِ الْكِتَابَةُ مُكَرَّرَةً بِاللُّغَتَيْنِ الإِغْرِيقِيَّةِ وَالهيرُوغْلِيفِيَّةِ . مِمَّا أَعَانَ الْفَرَنْسِيَّ شَامْبِلْيُون عَلَى مُضَاهَاةِ الأَسْمَاءِ فِي كِلا النَّصَّيْنِ — وَبَعْدَ جُهْدٍ طَوِيلٍ تَوَصَّلَ إِلَى حَلِّ رُمُوزِ اللُّغَةِ الهيرُوغْلِيفِيَّةِ وفَهمِ الكِتَابَةِ فَهْماً تَامّاً .

صُورَةٌ عَلَى قَبْرٍ آخَر . وَهُوَ قَبْرُ الْمَلِكَةِ نِفِرْتَارِي . وتَظْهَرُ هُنَا الرُّمُوزُ الهيرُوغْلِيفِيَّةُ مُحْكَمَةَ الرَّسْمِ أَكْثَرَ مِمَّا جَاءَ فِي الصُّورَةِ السَّابِقَةِ .



الْمَمْلَكَةُ الْحَدِيثَةُ (١٥٠٠ — ١٠٠٠ قَبْلَ الْمِيلادِ)

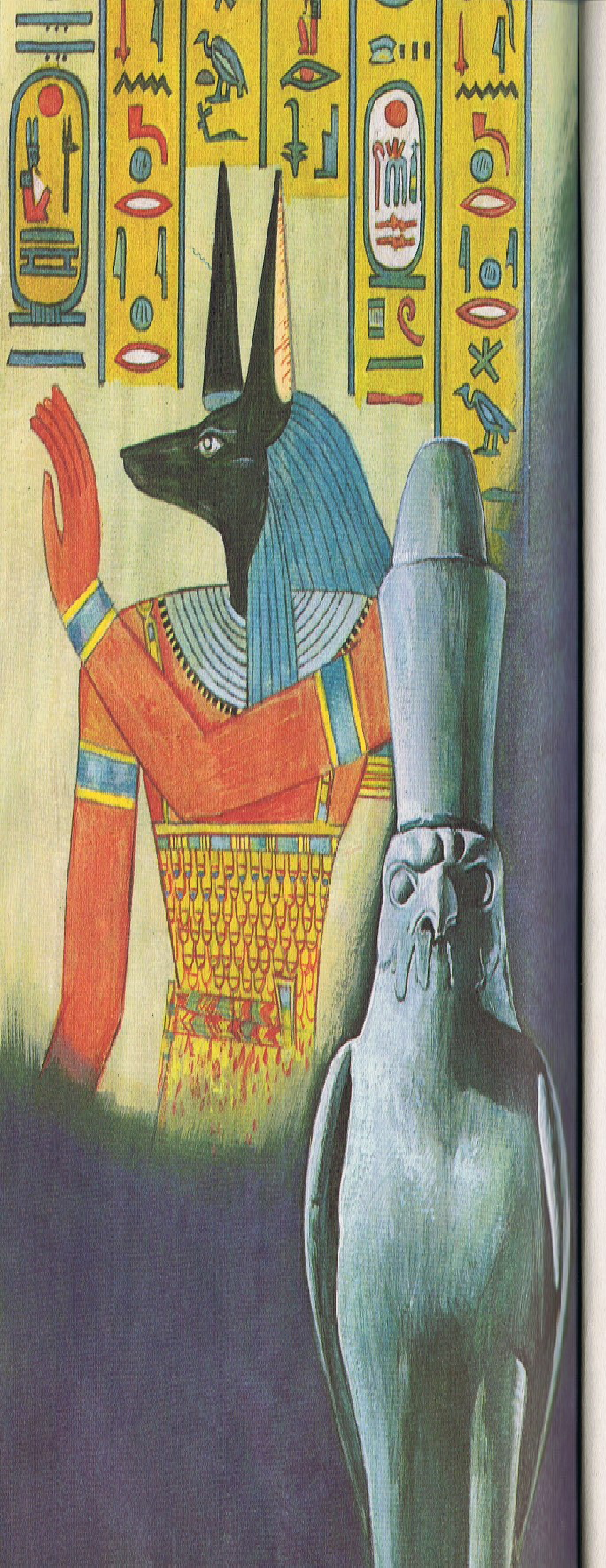
في الْفَتْرَةِ بَيْنَ عامَيْ ١٥٠٠ و١٢٠٠ قَبْلَ الْميلادِ كانَ الْمِصْرِيُّونَ أُمَّةً قَوِيَّةً جِدّاً . وَفي عَهْدِ الْأُسْرَةِ الثّامِنَةَ عَشْرَةَ أَيْ حَوالَى ١٤٥٠ قَبْلَ الْميلادِ ، أَسَّسَ الْفِرْعَوْنُ « تُحْتْمِسُ » الثّالِثُ الإِمْبَراطُورِيَّةَ الْمِصْرِيَّةَ بِغَزَواتِهِ في النُّوبَةِ (السُّودانِ الْآنَ) وَفِلَسْطينَ ، وَكانَ قائِداً مِغْواراً انْتَصَرَ في عِدَّةِ مَواقِعَ هامَّةٍ .

وَأَصْبَحَ الْجَيْشُ الْمِصْرِيُّ حينَئِذٍ يَسْتَعْمِلُ الْخَيْلَ وَالْعَرَباتِ . وَقَدْ تَعَلَّمَ ذَلِكَ مِمَّنْ كانَ يُحارِبُهُمْ . فَمِنْ قَبْلُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ خَيّالَةٌ ، وَاعْتَمَدَ الجيش عَلَى الْمُشاةِ الَّذينَ كانُوا يُقاتِلُونَ بِالْأَيْدي ، وَيَتَسَلَّحُونَ بِأَسْلِحَةٍ خَفيفَةٍ وَيَرْتَدُونَ دُرُوعاً بَسيطَةً . أَمّا بَعْدَ إِدْخالِ الْمَرْكَباتِ ، فَقَدْ اسْتَعْمَلُوا أَقْواساً أَكْثَرَ مَتانَةً . وَارْتَدَوا دُرُوعاً صَنَعُوها مِنَ الْجِلْدِ .

وَهُناكَ فِرْعَوْنٌ آخَرُ شَهيرٌ في الْحَرْبِ وَهُوَ رَمْسيسُ الثّاني ، الَّذي حَكَمَ مِصْرَ بَعْدَ تُحْتْمِسَ الثّالِثِ بِحَوالَى مائَتَيْ عامٍ . وَقَدْ حارَبَ أَيْضاً في فِلَسْطينَ ، وَكادَ أَنْ يُقْتَلَ في مَوْقِعَةِ قادِشَ ، عِنْدَما أَحاطَ بِهِ جُنُودُ الْعَدُوِّ ، وَلَوْلا أَنَّهُ هَجَمَ عَلى صُفُوفِهِمْ مُسْتَميتاً باسِلاً ، لَما تَمَكَّنَ مِنَ النَّجاةِ . وَلِحُسْنِ الْحَظِّ ، وَصَلَتِ الْإِمْداداتُ في الْوَقْتِ الْمُناسِبِ ، وَنَجا رَمْسيسُ وَجُنُودُهُ . وَلَمْ يَخْلُفْ رَمْسيسَ الثّانِيَ مُلُوكٌ عُرِفُوا بِالْبَأْسِ وَالْإِقْدامِ ، وَأَصْبَحَتْ مِصْرُ أُمَّةً واهِنَةً ، اسْتَحْوَذَ عَلَيْها الْآشُورِيُّونَ وَالْفُرْسُ ، ثُمَّ الْإِغْريقُ وَالرُّومانُ .

لَمْ يَكُنْ كُلُّ مُلُوكِ مِصْرَ مُحارِبينَ ، بَلْ كانَ مِنْهُمْ رِياضِيُّونَ كِبارٌ أَوْ مِعْمارِيُّونَ شَجَّعُوا الْفَنّانينَ وَالنَّحّاتينَ . وَحَكَمَتِ الْمَلِكَةُ حَتْشِبْسُوتُ — أُمُّ تُحْتْمِسَ — بِمُفْرَدِها فَتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ . وَعَمَّ السَّلامُ عَهْدَها ، وَشَيَّدَتْ عِدَّةَ تَماثيلَ وَنُصُبٍ تَذْكارِيَّةٍ . وَلَعَلَّ أَشْهَرَ أَعْمالِها إِرْسالُها بَعْثَةً تِجارِيَّةً إِلى ساحِلِ إِفْريقِيَّةَ الشَّرْقِيِّ . وَلَقَدْ نُقِشَتْ مَناظِرُ الْقُرى وَالنّاسِ الَّذينَ شُوهِدُوا في أَثْناءِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ ، وَصُوَرُ السُّفُنِ وَالْبَضائِعِ الَّتي جَلَبَتْها عَلى جُدْرانِ مَعْبَدِها الْعَظيمِ في طيبَةَ .

جُنودٌ مِصْرِيُّونَ يَسْتَعِدُّونَ لِمُهاجَمَةِ مَدينَةٍ في فِلَسْطينَ .



آلِهَةُ الْمِصْرِيِّينَ

كَانَ لِلْمِصْرِيِّينَ عَدَدٌ غَفِيرٌ مِنَ الْآلِهَةِ . وكَانُوا مَيَّالِينَ دَوْماً لإِضَافَةِ عَدَدٍ جَدِيدٍ مِنْ أُولَئِكَ الْآلِهَةِ . وَلَقَدْ عُبِدَ بَعْضُ تِلْكَ الْآلِهَةِ قَبْلَ بِنَاءِ الْأَهْرَامَاتِ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ . وكَانَ أَغْلَبُ هَذِهِ الْآلِهَةِ حَيَوَانَاتٍ خَشِيَهَا الْمِصْرِيُّونَ لِشِدَّةِ بَطْشِهَا ، أَوْ أُعْجِبُوا بِهَا لِقُوَّتِهَا .

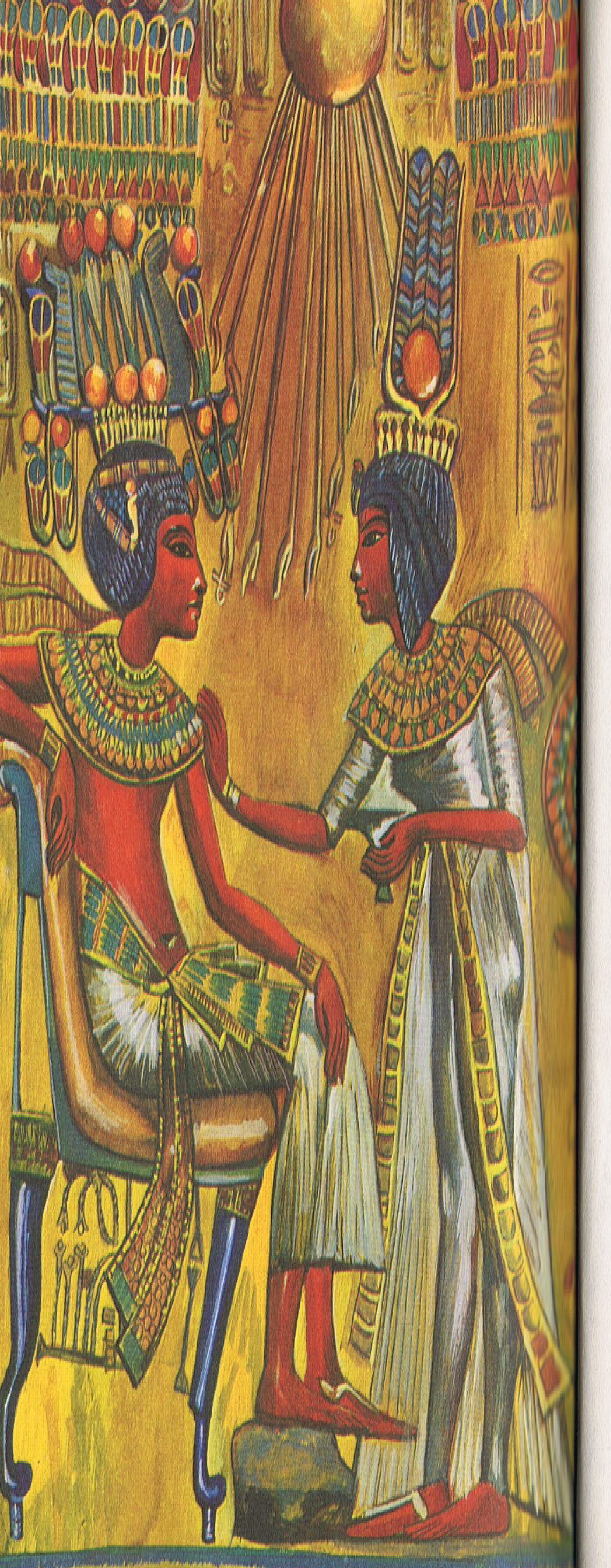
وَلَوْ وُضِعَتْ قَائِمَةٌ بِأَسْمَاءِ تِلْكَ الْآلِهَةِ لَمَا وَسِعَتْهَا هَذِهِ الصَّفْحَةُ . وَمِنْ ضِمْنِ الْآلِهَةِ الَّتِي صُوِّرَتْ كَثِيراً ، الْإِلَهُ حُورَسُ وَلَهُ رَأْسٌ كَرَأْسِ صَقْرٍ ، والإِلَهُ أَنُوبِيسُ وَلَهُ رَأْسُ ابْنِ آوى ، وَهُوَ إِلَهُ الْعَالَمِ الآخَرِ . وكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْحَيَّةَ وَالنَّسْرَ وَالتِّمْسَاحَ وَالْبَقَرَ وَالْأُسُودَ ، وَحَتَّى الضَّفَادِعَ وكَثِيراً غَيْرَهَا ، تَتَمَتَّعُ بِقُدْرَاتٍ خَاصَّةٍ . وكَانَ سَخْمَتُ ، الَّذِي لَهُ رَأْسُ لَبُوءَةٍ رَمْزَ الثَّأْرِ ، وكَانَ سَتُ إِلَهَ الشَّرِ وَالصَّحْرَاءِ الْجَرْدَاءِ ، وَلَهُ رَأْسُ حَيَوَانٍ أُسْطُورِيٍّ يُشْبِهُ الْكَلْبَ . وكَانَ أَخاً حَسُوداً لِلْإِلَهِ أُوزُورِيسَ .

وَلَمْ يَكُنْ أَبُو الْهَوْلِ إِلهاً ، بَلْ كَانَ حَارِساً عَلَى الْمَعَابِدِ . وَنُحِتَ تِمْثَالُ أَبِي الْهَوْلِ الْعَظِيمِ فِي الْجِيزَةِ فِي الصَّخْرِ ، حَيْثُ يُوجَدُ الْيَوْمَ ، وَيَبْلُغُ حَجْمُهُ دَرَجَةً مِنَ الضَّخَامَةِ بِحَيْثُ أُقِيمَ بَيْنَ مَخَالِبِهِ مَعْبَدٌ وَاسِع .

وكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْآلِهَةِ عَلَى شَكْلِ بَشَرٍ ، وَحَتَّى الْحَيَوَانَاتُ مِنْهَا كَانَتْ تُصَوَّرُ بِجَسَدِ إِنْسَانٍ وَرَأْسِ حَيَوَانٍ . وَقَدْ يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الكَاهِنَ كَانَ إِذَا مَا أَرَادَ أَنْ يُمَثِّلَ دَوْرَ إِلَهٍ يَضَعُ قِنَاعاً فَوْقَ رَأْسِهِ .

وَهُنَاكَ عَدَدٌ مِنَ الْحِكَايَاتِ تُرْوَى عَنِ الْآلِهَةِ . وكَثِيراً مَا كَانَ يُعْتَقَدُ أَنَّهُمْ يُؤَلِّفُونَ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْأُسَرِ . وَإِحْدَى هَذِهِ الْأُسَرِ الْمُهِمَّةِ جِدّاً ، يَنْتَمِي إِلَيْهَا أُوزُورِيسُ مَلِكُ الْعَالَمِ الْآخَرِ ، وَإِيزِيسُ زَوْجَتُهُ ، وَالْإِلَهُ حُورَسُ ابْنُهُمَا ، وكَانَ مَلِكَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا — وَلِذَلِكَ كَانَ يُنْظَرُ إِلَى فِرْعَوْنَ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهُ الْإِلَهُ حُورَسُ .

مِنْ لَوْحَةِ قَبْرٍ — أَنُوبِيسُ لابِساً قِنَاعَ ابْنِ آوى . وإِلَى الْيَمِينِ تِمْثَالُ حُورَسَ مِنْ مَعْبَدِهِ فِي أَدْفُو .



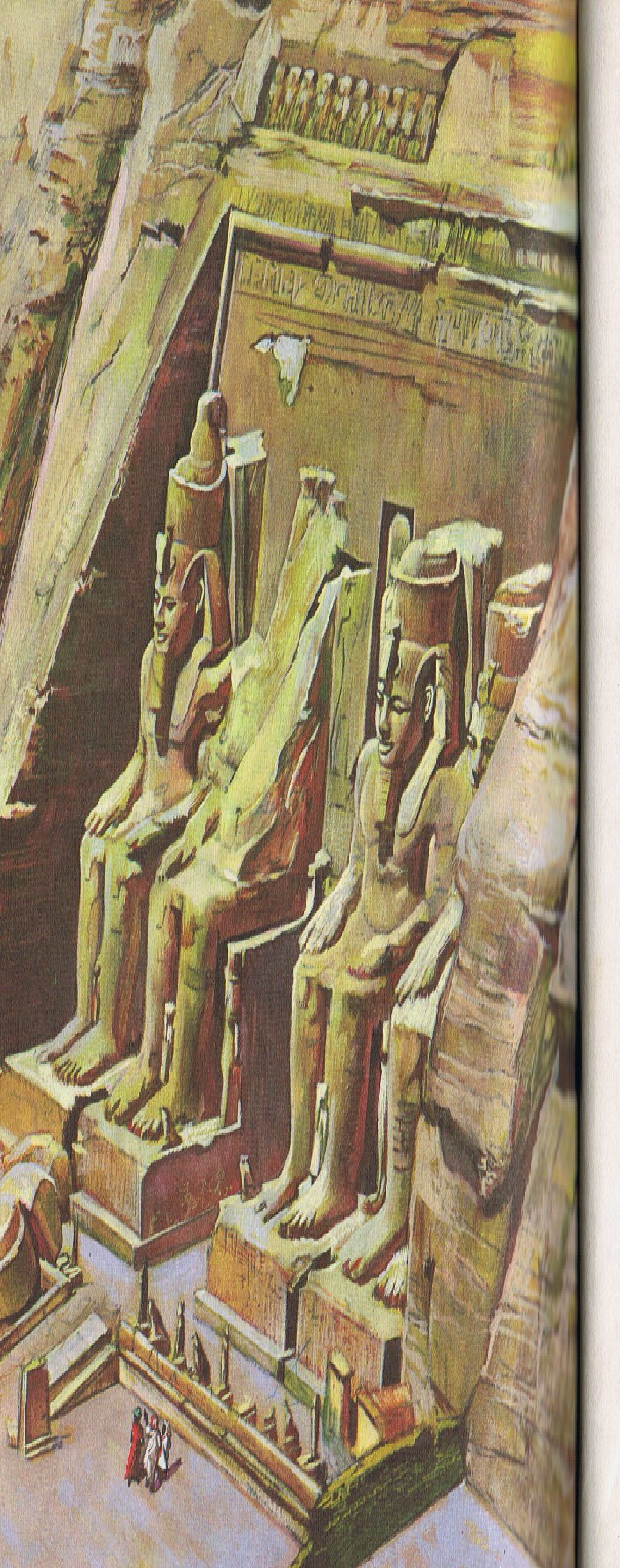
الْمَلِكُ أخْناتُونُ

وَمَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ ، عَبْرَ آلافِ السِّنِينَ الَّتِي اجْتَازَتْهَا الْحَضَارَةُ الْمِصْرِيَّةُ ، نُبِذَتْ هَذِهِ الْآلِهَةُ والإِلاهَاتُ كُلُّهَا لِيَحُلَّ مَحَلَّهَا إِلٰهٌ وَاحِدٌ هُوَ آتُونُ إِلٰهُ الشَّمْسِ . وكَانَ هَذَا حَوَالَى أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْخَامِسَ عَشَرَ قَبْلَ الْمِيلادِ . وكَانَ الْفِرْعَوْنُ أَمِنْحُوتِبُ الرَّابِعُ ، زَوْجُ الْمَلِكَةِ نِفِرْتِيتِي الْجَمِيلَةِ ، وَوَالِدُ تُوتْ عَنْخَ آمونَ ، هُوَ الَّذِي أَعْلَنَ أَنَّ آتونَ هُوَ إِلٰهُ مِصْرَ الْحَقُّ .

وَلَمْ يَلْقَ هَذَا التَّغْيِيرُ قَبُولاً مِن كَهَنَةِ الْآلِهَةِ الْأُخْرَى ، إِذْ سُلِبُوا ثَرَاءَهُم وَجَبَرُوتَهُمْ . وَأُغْلِقَتْ مَعَابِدُ الْآلِهَةِ الْأُخْرَى ، الَّتِي خَافَ شَعْبُ مِصْرَ غَضَبَهَا . وَلَمَّا نُبِذَتِ الدِّيَانَةُ المستحدثة ، في عَهْدِ تُوتْ عَنْخَ آمُونَ ، عَمَّ الارْتِيَاحُ وَالسُّرُورُ .

وَازْدَهَرَتِ الْفُنُونُ في عَهْدِ أَمنْحوتِبَ الرَّابِعِ . واستبدَلَ الْمَلِكُ بِاسْمِهِ اسْمَ أَخْنَاتُونَ ، الَّذِي يَعْنِي مَجْدَ آتُونَ ، وَبَنَى مَدِينَةً جَدِيدَةً رَائِعَةً سَمَّاهَا قُرْصَ الشَّمْسِ ، وَهِيَ عَلَى النِّيلِ ، حَيْثُ تَلُّ الْعَمَارِنَةِ الْيَوْمَ . وَحَلَّتْ هَذِهِ مَحَلَّ طِيبَةَ وَمَنْفِيسَ كَعَاصِمَةٍ لِمِصْرَ . وَخُطِّطَتِ الْمَدِينَةُ تَخْطِيطاً حَسَناً شَمِلَ بُيُوتاً جَمِيلَةً . وَنُحِتَتْ هيئَةُ الإِلٰهِ في كُلِّ مَكَانٍ . وكَانَتْ قُرْصاً أَحْمَرَ عَادَةً ، تَنْبَثِقُ منهُ عِدَّةُ أَشِعَّةٍ ضَوْئِيَّةٍ ، في طَرَفِ كُلٍّ مِنْهَا يَدٌ . وتُرَى هَذِهِ الْأَيْدِي مُمْسِكَةً الحرْفَ الهِيرُوغليفيَّ الذي يَرْمُزُ إلى الحياةِ .

هَذا الرَّسْمُ مَأخُوذٌ مِن ظَهْرِ كُرْسِيٍّ في قَبْرِ تُوتْ عَنْخَ آمُونَ . صُنِعَ لَهُ مِنْ قَبْلِ نَبْذِ عِبادَةِ آتونَ . وَيُرَى وَهُوَ جالِسٌ تَحْتَ الْقُرْصِ ذِي الْأَشِعَّةِ .



المَعابِدُ

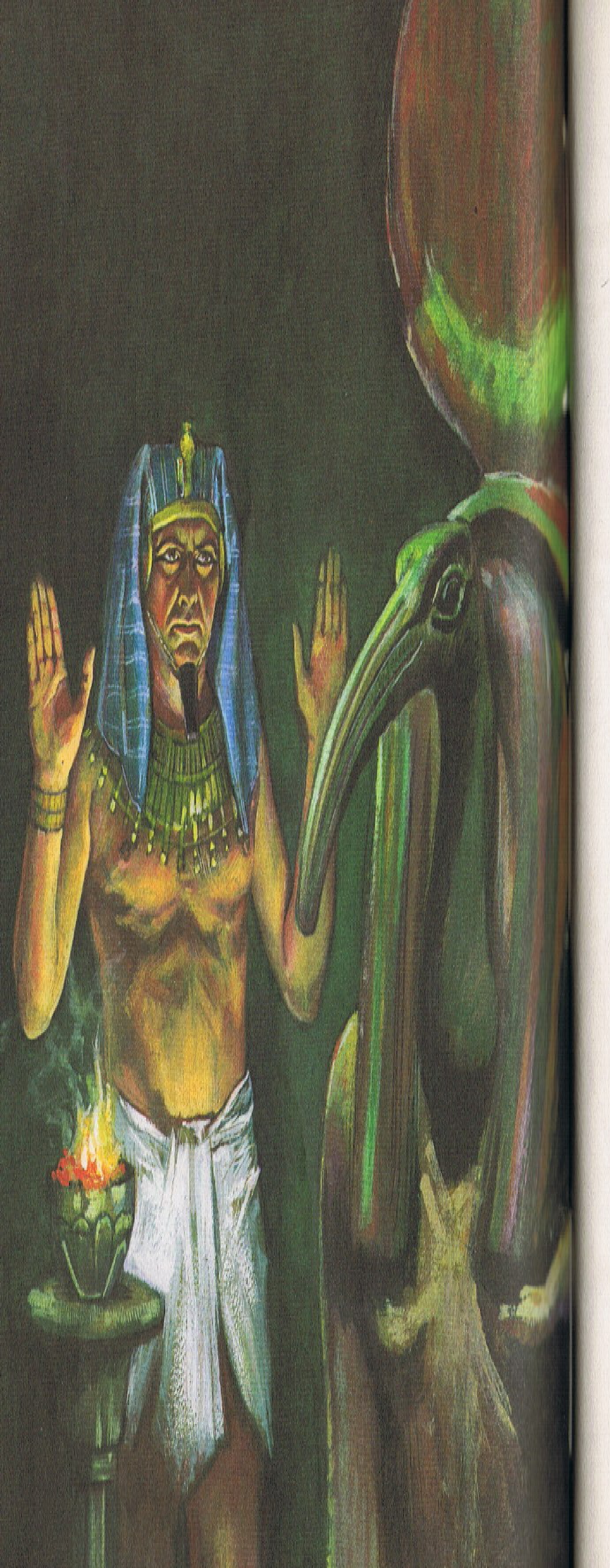
تُوجَدُ بَقايا وآثارُ الْمَعابِدِ الْعَظيمَةِ عَلى طُولِ ضِفافِ النِّيلِ . وكَثيرٌ مِنْها لَمْ يَكُنْ قَدِ اكْتَمَلَ بِناؤُهُ حينَ كانَ هيرُودُوتُ في مِصْرَ . ولَكِنَّ بَعْضَها كانَتْ آثاراً يتجاوز عُمرُها أَلْفَ عامٍ . وكانَتْ أَكْبَرُ الْمَعابِدِ تُشْبِهُ الكاتِدْرائِيّاتِ . تُضافُ إِلَيْها أَجْزاءٌ . وتَطْرأُ عَلَيْها تَغْييراتٌ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ . ومِنْ أَرْوَعِ هٰذِهِ الْمَعابِدِ مَعْبَدُ الإِلٰهِ آمونَ في الْكَرْنَكِ بِالأُقْصُرِ الْيَوْمَ . وَيَبْلُغُ ارْتِفاعُ بَعْضِ أَعْمِدَتِهِ أَكْثَرَ مِن ٢١.٣ مِتْراً . وقُطْرُها يَزيدُ عَنْ ١٢٠ سَنْتيمِتْراً أَمّا مَدْخَلُ الْمَعْبَدِ فَهُوَ عَنْ طَريقِ دِهْليزٍ . تَحُفُّهُ تَماثيلُ أَبي الْهَوْلِ عَلى الْجانِبَيْنِ . ولَهُ بَوّابَةٌ كَبيرَةٌ جِداً تَتَصَدَّرُها عِدَّةُ تَماثيلَ عَظيمَةٍ وَعَدَدٌ مِنَ الْمِسَلاّتِ .

كانَتِ الْمَعابِدُ مُزَيَّنَةً مِنَ الدّاخِلِ وَالْخارِجِ بِالصُّوَرِ الْمَحْفُورَةِ الْمُلَوَّنَةِ . وَشُكِّلَتِ الْأَعْمِدَةُ عَلى هَيْئَةِ حُزَمٍ ضَخْمَةٍ مِنَ الْبوصِ . أَمّا السُّقوفُ فَكانَتْ مُحَلاّةً بِالنُّجومِ كَيْ تُشْبِهَ السَّماءَ .

وكانَ واحِدٌ مِنْ أَرْوَعِ هٰذِهِ الْمَعابِدِ الْمَنْحُوتَةِ في الصَّخْرِ مُهَدَّداً بِالضَّياعِ التّامِّ في سَنَةِ ١٩٦٥ . عِنْدَما اكْتَمَلَ بِناءُ السَّدِّ العالي عَبْرَ النّيلِ عِنْدَ أُسْوانَ لِتَخْزينِ الْمِياهِ وَاسْتِعْمالِها وَقْتَ الْجَفافِ . وكانَتِ النَّتيجَةُ ، ارْتِفاعَ مَنْسُوبِ النَّهْرِ . الَّذي كانَ يَقَعُ بِجانِبِهِ عِنْدَ أَبي سُمْبُلَ ، مَعْبَدُ رَمْسيسَ الثّاني . وَلِذٰلِكَ تَقَرَّرَ رَفْعُ الْمَعْبَدِ بِأَكْمَلِهِ بِما في ذٰلِكَ التَّماثيلُ الْهائِلَةُ الرّابِضَةُ عِنْدَ الْمَدْخَلِ . وَالجُدْرانُ الدّاخِلِيَّةُ الْغَنِيَّةُ بِالنُّقوشِ وَالزَّخْرَفَةِ إِلى قِمَّةِ التَّلِّ فَوْقَ مُسْتَوى الْمِياهِ .

وكانَتْ هٰذِهِ مُهِمَّةً جَسيمَةً — احْتاجَ أَداؤُها إِلى قَطْعِ الصَّخْرِ الَّذي يَضُمُّ الْمَعْبَدَ بِأَكْمَلِهِ . وكانَ ارْتِفاعُ الْواجِهَةِ ٣٠,٤ مِتْراً بَيْنَما امْتَدَّ الْمَعْبَدُ عِدَّةَ أَمْتارٍ داخِلَ الصَّخْرِ .

الأَشْكالُ الأَرْبَعَةُ الْعَظيمَةُ لِرَمْسيسَ الثّاني مَقْطوعَةٌ مِنَ الصَّخْرِ الصُّلْبِ أَمامَ مَعْبَدِهِ في أَبي سُمْبُل . تَأَمَّلِ الأَشْكالَ الآدَمِيَّةَ الصَّغيرَةَ في أَسْفَلِ الصُّورَةِ لِمُقارَنَةِ الْحَجْمِ .



الدِّيَانَةُ

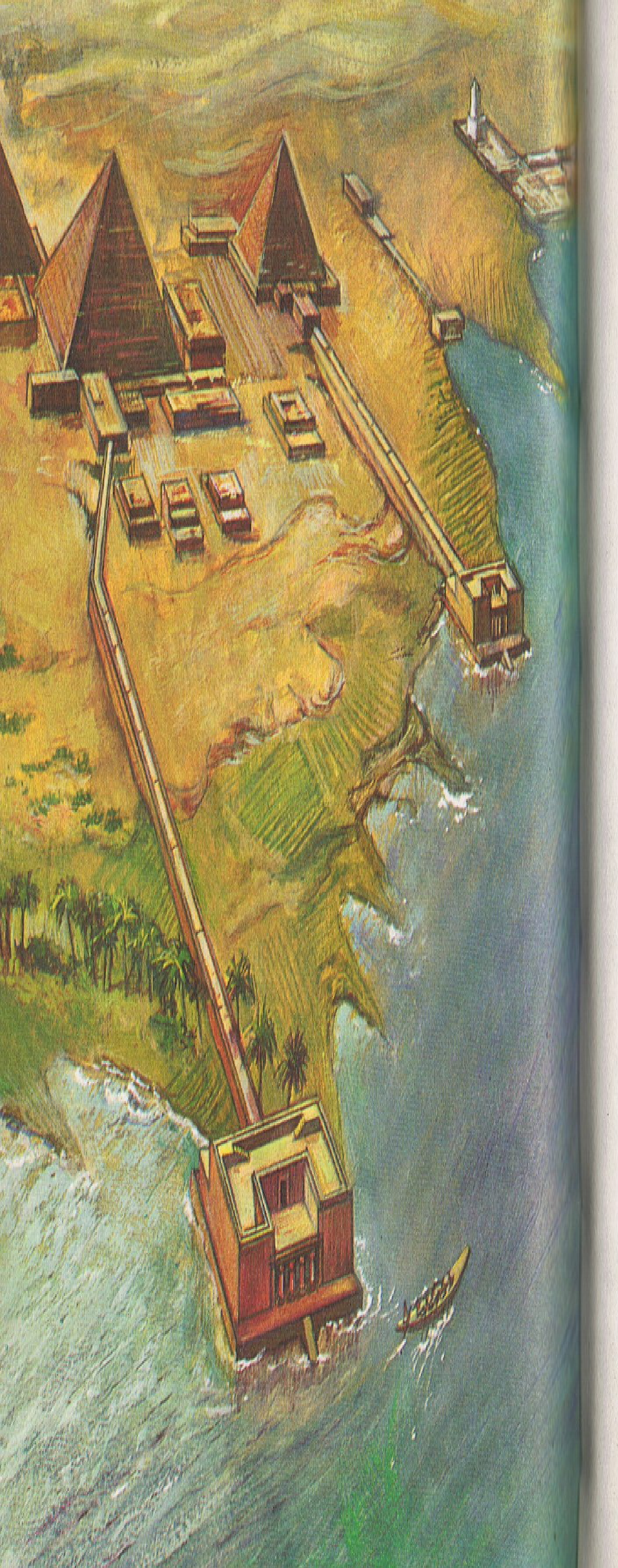
كَانَ يُنْظَرُ إِلَى الْمَعَابِدِ عَلَى أَنَّهَا مَنَازِلُ لِلآلِهَةِ . وَكَانَ لِكُلِّ إِلٰهٍ مَعْبَدُهُ الرَّئِيسِي ، وَكَانَتْ تُضْفَى فِيهَا رِعَايَةٌ خَاصَّةٌ عَلَى تِمْثَالِ الْإِلٰهِ . كَمَا لَوْ كَانَ شَخْصاً حَيّاً . وَكَانَ كُلُّ إِلٰهٍ أَوْ إِلٰهَةٍ يُوقَظُ فِي الصَّبَاحِ بِجَوْقَةٍ مِنَ الْمُتَرَنِّمِينَ . يُنْشِدُونَ تَرَانِيمَهُمْ ، ثُمَّ يَقُومُونَ بِإِلْبَاسِهِ مَلَابِسَهُ ، وَيُقَدَّمُ لَهُ الطَّعَامُ . وَبَعْدَ وَقْتٍ يُرْفَعُ الطَّعَامُ لِتَأْكُلَهُ الْكَهَنَةُ — وَبِهَذَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَعِيشُوا .

وَرُبَّمَا كَانَ عَلَى الإِلٰهِ آنَذاكَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ مَبْعُوثِينَ فِي مَهَامَّ خَاصَّةٍ . وَيُدْلِيَ بِنُبُوءَاتٍ إِلٰهِيَّةٍ . وَكَانَ الْكَهَنَةُ هُمُ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِاسْمِهِ بِكُلِّ هَذَا — وَكَانَتْ تُقَدَّمُ لَهُ وَجْبَةٌ ثَانِيَةٌ فِي الظُّهْرِ . وَأُخْرَى فِي الْمَسَاءِ ، ثُمَّ تُخْلَعُ عَنْهُ مَلَابِسُ النَّهَارِ ، وَيُوضَعُ فِي الْفِرَاشِ . وَمِنَ الْغَرَابَةِ أَنْ تَتَصَوَّرَ إِلٰهاً يَرْتَدِي رِدَاءً يُشْبِهُ الْبِيجَامَةَ .

وَكَانَتْ تُقَامُ احْتِفَالَاتٌ هَامَّةٌ فِي أَيَّامٍ مُعَيَّنَةٍ ، يَحْمِلُ فِيهَا الْكَهَنَةُ الإِلٰهَ عَلَى نَمُوذَجٍ لِمَرْكَبٍ كَبِيرٍ . فَوْقَ نَقَّالَةٍ ضَخْمَةٍ ، وَتُرْفَعُ إِلَى مُسْتَوَى الْكَتِفِ . ثُمَّ يُؤْخَذُ خَارِجَ الْمَعْبَدِ فِي مَوْكِبٍ يَتَقَدَّمُهُ الْكَهَنَةُ وَالرَّاقِصَاتُ ، وَعَازِفُو الْمُوسِيقَى . وَمُرَتِّلُو الْأَنَاشِيدِ . أَمَّا عَامَّةُ الشَّعْبِ فَكَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِإِجَازَةٍ عَامَّةٍ ، لِيَقِفُوا مُتَفَرِّجِينَ وَمُحَيِّينَ . وَكَانَتْ تُقَامُ أَلْعَابٌ جَانِبِيَّةٌ كَثِيرَةٌ . كَمَا يَحْدُثُ فِي الْأَسْوَاقِ الْمَوْسِمِيَّةِ . وَفِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ . كَانَ الْإِلٰهُ يَرْحَلُ عَبْرَ النَّهْرِ . وَلِعِدَّةِ أَمْيَالٍ . لِيَزُورَ مَعْبَداً آخَرَ . رُبَّمَا كَانَ مَعْبَدَ الْإِلٰهَةِ زَوْجَتِهِ .

وَكَانَ بَعْضُ الْكَهَنَةِ يَقْضُونَ حَيَاتَهُمْ كُلَّهَا فِي الْمَعْبَدِ . وَلَكِنَّ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ كَانُوا مِنَ النُّبَلَاءِ الَّذِينَ يَتَنَاوَبُونَ الْقِيَامَ بِهَذِهِ الْخِدْمَةِ لِفَتْرَةِ شَهْرٍ فِي كُلِّ مَرَّةٍ . وَكَانَ عَلَيْهِمْ اتِّبَاعُ قَوَانِينَ صَارِمَةٍ مِنْ حَيْثُ النَّظَافَةُ وَالامْتِنَاعُ عَنْ بَعْضِ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ . وَكَانَ جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ دِيَانَةِ الْمِصْرِيِّينَ يَعْتَمِدُ عَلَى الْخُزَعْبَلَاتِ وَالسِّحْرِ ، وَكَانَتْ لِلْكَهَنَةِ سُلْطَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الشَّعْبِ الَّذِي كَانَ يَخْشَى غَضَبَ الإِلٰهِ .

الْمَلِكُ يَعْبُدُ الْإِلٰهَ تُوت . وَكَانَ يَنُوبُ عَنْهُ عَادَةً كَاهِنٌ فِي هَذِهِ الْمُهِمَّةِ .



الْأَهْرَامَاتُ وَمَقَابِرُ أُخْرَى

كُلُّنَا يَعْرِفُ أَنَّ مِصْرَ مَشْهُورَةٌ بِأَهْرَامَاتِهَا . وَكَانَتِ الْأَهْرَامَاتُ عِبَارَةً عَنْ مَقَابِرَ كَبِيرَةٍ لِمُلُوكِ كُلٍّ مِنَ الْمَمْلَكَةِ الْقَدِيمَةِ وَالْمَمْلَكَةِ الْوُسْطَى . وَبُنِيَتِ الْأَهْرَامَاتُ مِنْ كُتَلِ أَحْجَارٍ ضَخْمَةٍ ، مَا عَدَا مَمَرًّا ضَيِّقًا يُؤَدِّي إِلَى غُرْفَةِ دَفْنٍ صَغِيرَةٍ . وَفِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ كَانَ يُوجَدُ إِلَى جِوَارِ هَذَا الْهَرَمِ هَرَمٌ أَصْغَرُ لِلْمَلِكَةِ . وَبُنِيَتِ الْأَهْرَامَاتُ كُلُّهَا عَلَى رُبًى عَالِيَةٍ عَلَى الضِّفَّةِ الْغَرْبِيَّةِ لِلنِّيلِ . وَعَلَى الْجَانِبِ الْمُوَاجِهِ لِلنَّهْرِ كَانَ يُوجَدُ مَعْبَدٌ يُقَدِّمُ فِيهِ الْكَهَنَةُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ لِرُوحِ الْمَلِكِ الرَّاحِلِ يَوْمِيًّا . وَكَانَ هُنَاكَ دِهْلِيزٌ يَمْتَدُّ مِنْ هَذَا الْمَعْبَدِ إِلَى مَعْبَدٍ آخَرَ أَصْغَرَ فِي أَسْفَلِ الرَّبْوَةِ . وَفِي هَذَا الْمَكَانِ يُؤْتَى بِجَسَدِ الْمَلِكِ لِلتَّحْنِيطِ .

وَيَظُنُّ الْكَثِيرُونَ أَنَّ كُلَّ الْمِصْرِيِّينَ كَانُوا يُدْفَنُونَ فِي أَهْرَامَاتٍ . وَلَكِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ صَحِيحٍ فَإِنَّهُ ، وَحَتَّى الْمُلُوكُ لَمْ يُدْفَنُوا جَمِيعُهُمْ فِي أَهْرَامَاتٍ . وَفِي الْمَمْلَكَةِ الْحَدِيثَةِ وَمَا بَعْدَهَا كَانُوا يُدْفَنُونَ فِي مَقَابِرَ صَخْرِيَّةٍ .

وَكَلَّفَ إِنْشَاءُ الْأَهْرَامَاتِ وَصِيَانَتُهَا مَبَالِغَ كَبِيرَةً . كَمَا أَنَّهَا كَانَتْ تَجْذِبُ إِلَيْهَا اللُّصُوصَ ، الَّذِينَ لَمْ تُعْيِهِمِ الْحِيَلُ لِلتَّسَلُّلِ إِلَى دَاخِلِهَا ، مَهْمَا كَانَ الطَّرِيقُ خَفِيًّا أَوْ مُسْتَعْصِيًا . وَتَقَعُ الْمَقَابِرُ الصَّخْرِيَّةُ لِلْمُلُوكِ ، الَّذِينَ حَكَمُوا بَعْدَ ذَلِكَ ، فِي وَادِي الْمُلُوكِ بِطِيبَةَ . وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ سَرَادِيبَ طَوِيلَةٍ ، مَنْحُوتَةٍ فِي الصَّخْرِ ، وَمُزَخْرَفَةٍ بِالنُّقُوشِ وَالصُّوَرِ الْمُلَوَّنَةِ . وَتَقَعُ مَقْبَرَةُ تُوتْ عَنْخْ آمُونَ فِي هَذَا الْوَادِي . وَكَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ صَغِيرَةً جِدًّا ، إِذَا قُورِنَتْ بِبَعْضِ مَقَابِرِ مُلُوكٍ آخَرِينَ لَهُمْ شَأْنٌ أَكْبَرُ .

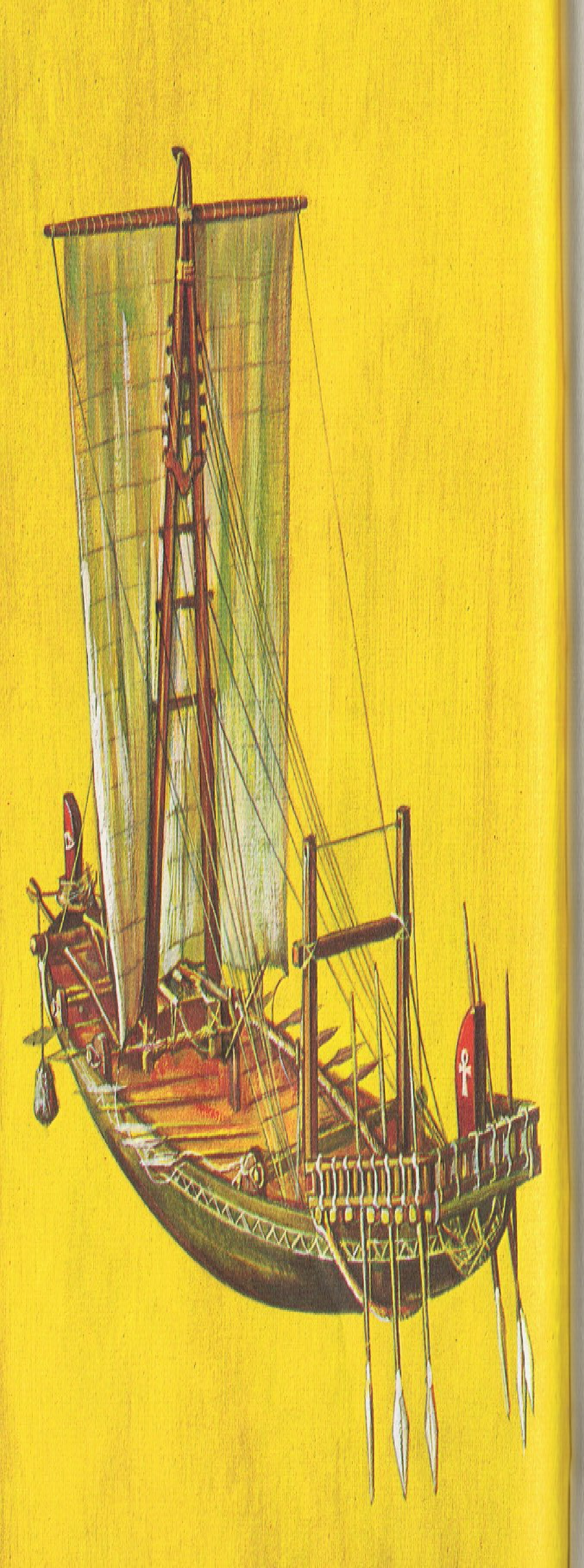
وَبُنِيَتْ مَدَافِنُ النُّبَلَاءِ حَوْلَ الْأَهْرَامَاتِ . وَكَانُوا يُدْفَنُونَ فِي أَسْفَلِ نَفَقٍ عَمِيقٍ ، يُقَامُ فَوْقَهُ مَبْنًى مُرَبَّعٌ مِنَ الطُّوبِ . يَحْتَوِي عَلَى عِدَّةِ حُجُرَاتٍ مُزَيَّنَةٍ بِمَنَاظِرَ رَائِعَةٍ عَنِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ كَانَ يَتِمُّ دَفْنُهُمْ هُمْ أَيْضًا فِي مَقَابِرَ صَخْرِيَّةٍ أَصْغَرَ مِنْ مَقَابِرِ الْمُلُوكِ ، وَهِيَ أَيْضًا مُزَيَّنَةٌ بِأَبْهَى الزَّخَارِفِ .

أَهْرَامَاتٌ وَمَعَابِدُ عَلَى الْأَرْضِ الْمُرْتَفِعَةِ عِنْدَ أَعْلَى النَّهْرِ فِي أَبِي صِيرَ .

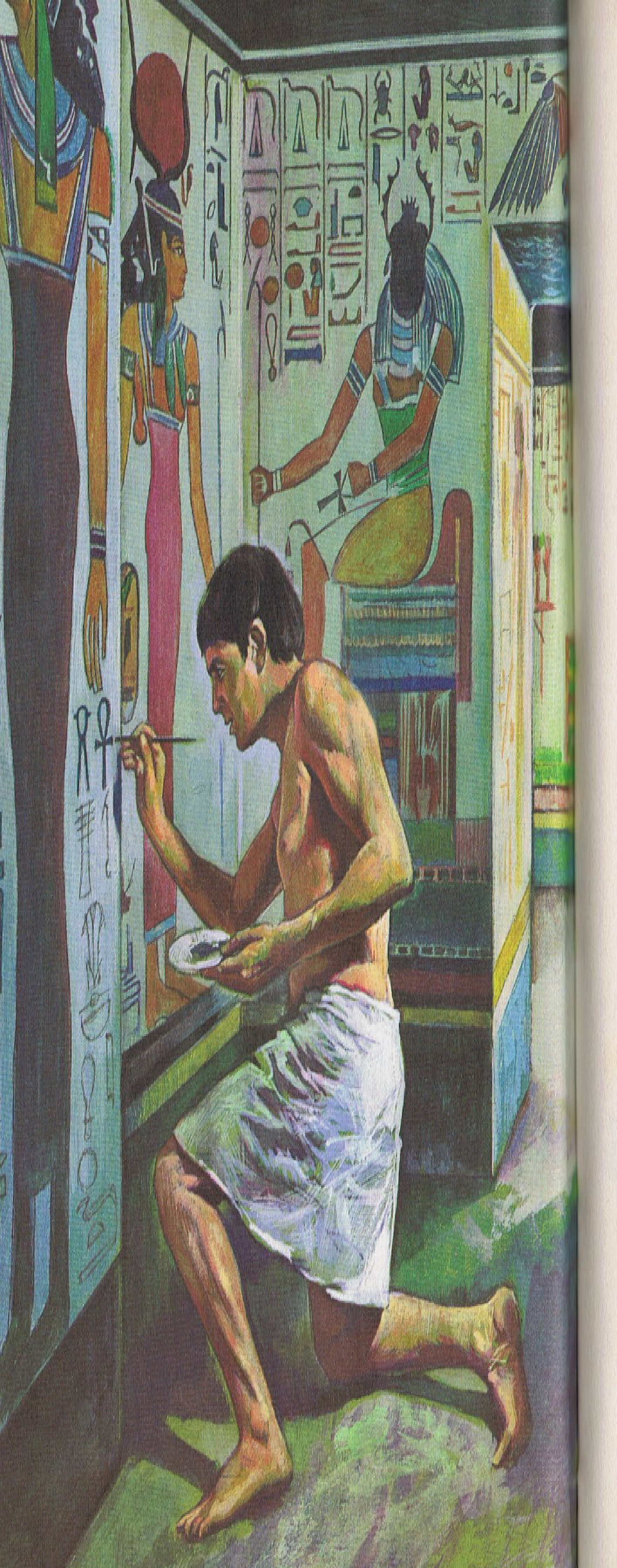
اِعتقدَ المِصْريّونَ أنّ الروحَ تبقى بعدَ مُفارقةِ الجسدِ. وحنّطوا الجسدَ حتّى تتمكّنَ الروحُ مِنْ أنْ تأْويَ إليْهِ – وكذلكَ وضعوا في المقابرِ كثيراً مِنَ الأشياءِ الّتي ظُنَّ أنّها تكونُ ذاتَ نفعٍ، مِثْلَ الآلاتِ والأسلحةِ والحُلِيِّ. وحتّى المناضِدِ والكراسيِّ والأسرّةِ. ووُضِعتْ بعضُ الأشياءِ مِنْ بابِ الذِّكْرى. فقدْ يُدفَنُ معَ الجُنْديِّ أحبُّ شيءٍ إليْهِ، وهوَ قوسُهُ ونُشّابُهُ. ويُدْفَنُ معَ الحِرَفيِّ مِطْرَقتُهُ الخاصّةُ أوْ سِكّينُهُ. وفي بعضِ الأوْقاتِ كانَ المِصْريّونَ يكتفونَ بأنْ يدفِنوا معَ الرّاحِلِ نموذجاً لأعزِّ شيءٍ على نفْسِهِ.

ولسوءِ الحظِّ سُلِبَتْ قبورُ الفراعنةِ العِظامِ في القرونِ الغابرةِ. أمّا مقبرةُ توتْ عنْخ آمونَ، فقدْ وُجِدتْ على ما هيَ عليْهِ تكادُ لمْ تمْسَسْها يدٌ. واحْتوتْ على نماذجَ كثيرةٍ منَ التُّحَفِ الفاتنةِ، مِنْ أثاثٍ، ومحفوراتٍ ذهبيّةٍ، وصناديقَ، وتماثيلَ بالحجْمِ الطّبيعيِّ، ومراكبَ، وحيواناتٍ، كلُّها ملوّنةٌ ومطعّمةٌ بالأحجارِ شبهِ الكريمةِ، وهيَ تُضاهي أفضلَ ما يُمكنُ إنتاجُهُ اليومَ. ومنْها يمكنُنا أنْ نحصلَ على صورةٍ واضحةٍ عنْ حياةِ ملِكٍ مِصْريٍّ، عاشَ منذُ أمدٍ بعيدٍ.

وكانتْ توضعُ أيضاً بعضُ الأشياءِ الخاصّةِ في المدافِنِ. ففي كثيرٍ منَ المتاحفِ نرى الأواني الحجريّةَ المُغطّاةَ بغطاءٍ يُشبهُ رأسَ صقرٍ، أوْ قِرْدٍ، أوْ كلبٍ، أوْ إنسانٍ. وتُسمّى هذهِ جراراً جنائزيّةً. وكانَ يؤتى بها لحفظِ أجزاءِ الجسمِ الّتي تُنزَعُ في أثناءِ التّحنيطِ. كذلكَ نرى تماثيلَ صغيرةً تُسمّى أوشابيتَ (شغّالات). تُصنعُ أحياناً منَ الفخّارِ، أوِ الخشبِ، أوِ الحجرِ. وتكونُ غالباً منْ نوعٍ خاصٍّ منَ الخزفِ الصقيلِ (الصّينيِّ). وهذهِ التّماثيلُ مصنوعةٌ على شكلِ شخصٍ محنّطٍ، لكنّهُ يحملُ مِعْوَلاً أوْ سلّةً، حتّى يكونَ على استعدادٍ للعملِ في الحقلِ بدلاً منَ الرّجلِ المتوفّى.



مركبٌ نموذجيٌّ يُشابهُ ما كانَ يُترَكُ في القبرِ كوسيلةِ نقلٍ للشّخصِ المتوفّى.



الْفَنُّ الْمِصْرِيُّ

رَسَمَ الْفَنَّانُونَ الْمِصْرِيُّونَ كَثِيراً مِنَ الرُّسُومِ الرَّائِعَةِ عَلَى جُدْرَانِ مَقَابِرِ الْمُلُوكِ وَالنُّبَلَاءِ وَلَوَّنُوها — وكَانُوا يَعْتَقِدُونَ بِقُدْرَةِ الْكَاهِنِ عَلَى بَعْثِ الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الرُّسُومِ بِتَرْدِيدِ رُقْيَةٍ سِحْرِيَّةٍ ، تُسَاعِدُ الْمُتَوَفَّى عَلَى الاسْتِمْتَاعِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الصُّورَةُ . وَلِهَذَا السَّبَبِ صَوَّرُوا بِالْأَلْوانِ الزَّيْتِيَّةِ الْحَفَلَاتِ وَالْوَلَائِمَ ، كَمَا رَسَمُوا الرَّجلَ نفسه يَتَمَتَّعُ بِالصَّيْدِ فِي الْمُسْتَنْقَعَاتِ ، وَرَسَمُوا الْخَدَمَ الْكَثِيرِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ أَجْلِهِ .

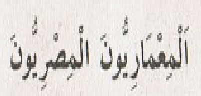
وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لَمْ يَتَطَلَّعُوا قَطُّ إِلَى عَرْضِ صُوَرِهِمْ لِلْمُشَاهَدَةِ ، بَلْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْهَا خِدْمَةَ الرَّجُلِ الْمُتَوَفَّى فِي الحياةِ الأخرى بَعْدَ الْمَوْتِ .

وكَثِيراً مَا يُظَنُّ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ تَنْقُصُهُمُ الْمَهَارَةُ فِي الرَّسْمِ ، لِأَنَّهُمْ كانُوا يَرْسُمُونَ الْأَشْخَاصَ بِمَزِيجٍ مِنَ الرَّسْمِ الْجَانِبِيِّ لِلْجِسْمِ بَيْنَمَا يَظْهَرُ الْوَجْهُ مُواجِهاً . وَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ رَغْبَةً فِي إِظْهَارِ أَكْثَرِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الشَّخْصِ — فَرَسَمُوا النِّصْفَ الْجَانِبِيَّ لِإِظْهَارِ شَكْلِ الْأَنْفِ — ثُمَّ رَسَمُوا الْعَيْنَيْنِ مُوَاجِهَةً لِإِظْهَارِ لَوْنِهَا . وَلَمْ يَكُونُوا يَقْتَصِرُونَ فِي رَسْمِهِمْ عَلَى مَا يَرَوْنَ . بَلْ كَانُوا يَرْسُمُونَ كُلَّ مَا يَعْرِفُونَهُ

وَلِهَذَا السَّبَبِ وَضَعَ الْمِصْرِيُّونَ كَثِيراً مِنَ التَّفْصِيلَاتِ الَّتِي لَا تَظْهَرُ عَادَةً فِي الْوَاقِعِ الْحَقِيقِيِّ . فَمَثَلاً ، كَانُوا يَرْسُمُونَ صُنْدُوقاً ، ثُمَّ يَرْسُمُونَ مَا بِدَاخِلِهِ كَأَنَّهُ مَوْضُوعٌ عَلَى الْغِطَاءِ . وَيَجْدُرُ بِنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ هَذَا كُلَّمَا نَظَرْنَا إِلَى صُورَةٍ مِصْرِيَّةٍ .

وَخَطَّطَ الْفَنَّانُونَ الْمِصْرِيُّونَ أَعْمَالَهُمْ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ ، فَكَانُوا يُقَسِّمُونَ الْعَمَلَ إِلَى شَبَكَةٍ مِنَ الْمُرَبَّعَاتِ ، ثُمَّ يَرْسُمُونَ عَلَيْهَا مَبْدَئِيّاً الْأَشْكَالَ وَالْأَشْخَاصَ وَنِظَامَ الْأَحْرُفِ الْهِيرُوغْلِيفِيَّةِ ، قَبْلَ إِتْمَامِ الرَّسْمِ .

فنانٌ يتمم عمله في قبر نفرتاري .



اَلْمِعْمارِيُّونَ الْمِصْرِيُّونَ

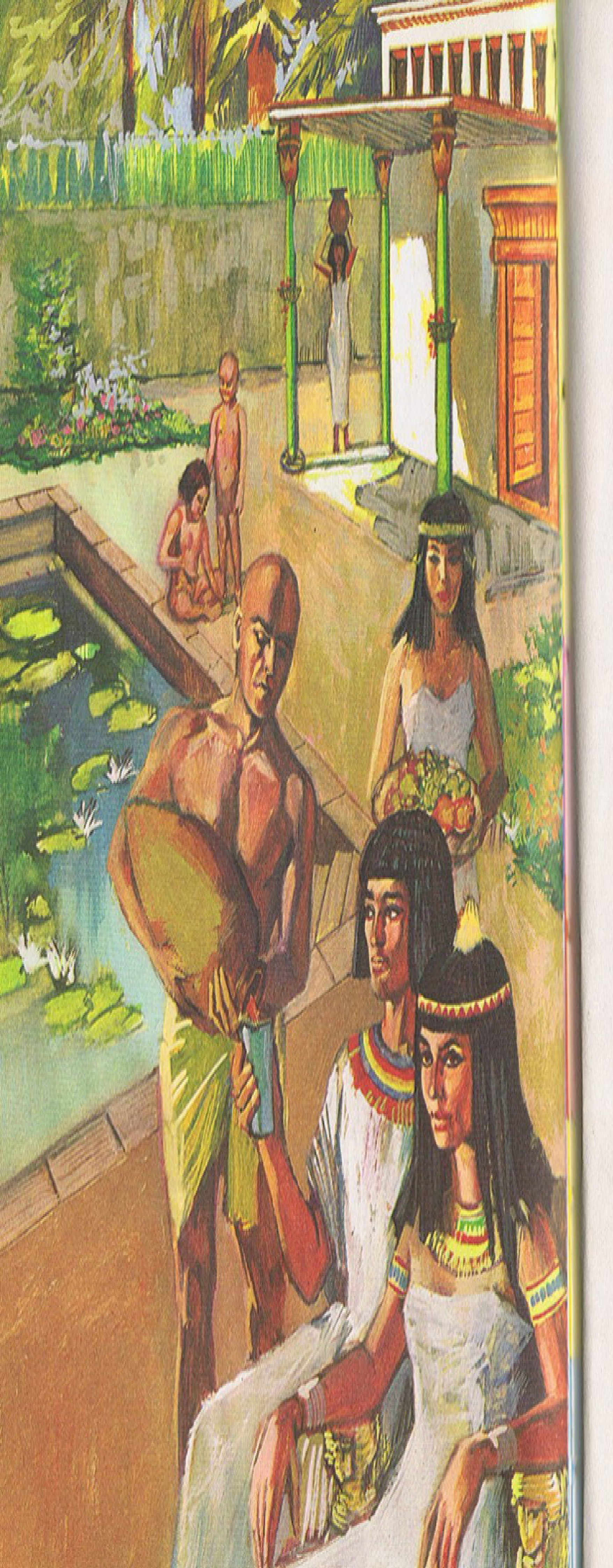
كانَ الْمِصْرِيُّونَ مِعْمارِيِّينَ بارِعِينَ ، فَمَعابِدُهُم الشّاهِقَةُ وَقُصُورُهُمُ الضَّخْمَةُ تَدُلُّ عَلى دَرَجَةٍ عالِيَةٍ مِنَ الْحَضارَةِ وَالْمَهارَةِ الْفَنِّيَّةِ . وَأَهْرامَاتُ الْجِيزَةِ الْهائِلَةُ قَدْ تَظْهَرُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ أَنَّها لا تَحْتاجُ إِلى مَهارَةٍ مِعْمارِيَّةٍ كَبِيرَةٍ . حَتّى نَعْلَمَ أَنَّ الْجَوانِبَ الْأَرْبَعَةَ مُتَساوِيَةٌ بِدِقَّةٍ مُذْهِلَةٍ بِحَيْثُ لا يَتَعَدّى الْفَرْقُ بَيْنَها بِضْعَةَ مِلِّيمِتْراتٍ . وَمِمّا لا شَكَّ فِيهِ أَنَّ تَحْدِيدَ الزّاوِيَةِ الَّتِي تَتَقابَلُ عِنْدَها هذِهِ الْجَوانِبُ . عَلى ارْتِفاعِ ١٢٢ مِتْراً تَطَلَّبَتْ أَعْظَمَ الدِّقَّةِ .

وَقَبْلَ عَصْرِ الصُّلْبِ وَالإِسْمَنْتِ ، كانَتِ الْمَبانِي تُقامُ بِما يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهِ مَحَلِّيّاً مِنَ الْمَوادِّ . وَفِي مِصْرَ الْقَدِيمَةِ كانَتْ تُوجَدُ مَحاجِرُ لِلْحَجَرِ الْجِيرِيِّ وَحَجَرِ الصَّوّانِ وَالْحَجَرِ الرَّمْلِيِّ . كَذلِكَ كانَ الطِّينُ وافِراً لِعَمَلِ الْآجُرِّ الْمُجَفَّفِ فِي الشَّمْسِ . أَمّا الْخَشَبُ فَكانَ نادِراً ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ لِأَغْراضِ الْبِناءِ . وَلَقَدْ أَتاحَ نَهْرُ النِّيلِ الصّالِحُ لِلْمِلاحَةِ لِلْمِصْرِيِّينَ نَقْلَ كُتَلٍ ضَخْمَةٍ مِنَ الْحِجارَةِ ، قَدْ تَزِنُ عَشَراتِ الْأَطْنانِ . وَلِذلِكَ لا نَجِدُ أَيَّ بِناءٍ ذِي شَأْنٍ بَعِيداً عَنْ شَواطِئِ النِّيلِ .

لَمْ يَسْتَعْمِلِ الْمِصْرِيُّونَ آلاتٍ رافِعَةً (وِنْشاتٍ) وَلا بَكَراتٍ أَوْ عَجَلاتٍ فِي نَقْلِ تِلْكَ الْكُتَلِ بَرّاً . وَبَدَلاً مِنِ اسْتِعْمالِ السِّقالاتِ ، كانَ الْبَنّاءُونَ يُعِدُّونَ مُنْحَدَراتٍ أَرْضِيَّةً يَجُرُّونَ فَوْقَها كُتَلَ الْحِجارَةِ إِلى أَماكِنِها عَلى أُسْطُواناتٍ حَيْثُ يَشُدُّها رِجالٌ كَثِيرُونَ بِحِبالٍ أَوْ بِرَوافِعَ — وَقَدْ نُصِبَتْ مِسَلّاتٌ ضَخْمَةٌ تَزِنُ عِدَّةَ أَطْنانٍ بِهذِهِ الطَّرِيقَةِ . وَبِالتَّدْرِيجِ كانَتْ تُنْصَبُ فِي حُفَرٍ مُعَدَّةٍ بِدِقَّةٍ . وَيُزالُ بَعْدَها الْمُنْحَدَرُ الْمُحِيطُ بِها .

وَأَلَمَّ الْمِصْرِيُّونَ بِنَظَرِيَّةِ الْقَنْطَرَةِ الْبَسِيطَةِ وَاسْتَعْمَلُوها فِي الْأَبْنِيَةِ الْمُقامَةِ بِالْآجُرِّ . وَلكِنْ — لِسَبَبٍ ما — لَمْ يُنَفِّذُوها بِالْحِجارَةِ قَطُّ . وَفَضَّلُوا اسْتِعْمالَ أَلْواحٍ حَجَرِيَّةٍ مُسَطَّحَةٍ تَرْتَكِزُ عَلى أَعْمِدَةٍ بَسِيطَةٍ أَوْ مُزَخْرَفَةٍ . وَقَدْ حَتَّمَ ذلِكَ اسْتِعْمالَ صُفُوفٍ مِنَ الْأَعْمِدَةِ داخِلَ الْمَعابِدِ الضَّخْمَةِ .

تَحْرِيكُ كُتْلَةٍ ضَخْمَةٍ مِنَ الْحَجَرِ عَلى زَلّاجَةٍ



المَنازِلُ

نَعْلَمُ الكَثيرَ عَنْ مَنازِلِ المِصْرِيّينَ لِأَنَّ عُلَماءَ الآثارِ كَشَفُوا عَنْ كَثيرٍ مِنْها. وَهٰذِهِ البَقايا تُرينا مُخَطَّطَ المَبْنى العامّ، وفي كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ لَمْ يَبْقَ مِنْها إلاّ الأَساسُ فَقَطْ. وَلِكَيْ نَطَّلِعَ عَلَى المَزيدِ يَجِبُ أَنْ نَلْجَأَ إِلَى النَّماذِجِ الخَشَبِيَّةِ أَوِ المَصْنوعَةِ مِنَ الصَّلْصالِ، أَوْ إِلَى الرُّسومِ المُلَوَّنَةِ المَوْجودَةِ في القُبورِ. وَالنَّماذِجُ يُمْكِنُ أَنْ تُرَى في كَثيرٍ مِنَ المَتاحِفِ الكَبيرَةِ.

كانَتْ أَكْثَرُ المَنازِلِ تُبْنى وَسَطَ فِناءٍ مُحاطَةً بِأَسْوارٍ عالِيَةٍ. وَكانَ يُمْكِنُ إيواءُ الحَيَواناتِ في الفِناءِ. كَما كانَتْ هُنالِكَ صَوامِعُ لِلْغِلالِ لِتَخْزينِ الطَّعامِ. وَلَمْ تَكُنِ المَنازِلُ أَكْثَرَ مِنْ مَأْوًى لِلظِّلِّ وَاتِّقاءِ شِدَّةِ الرّيحِ. فالجَوُّ في مِصْرَ عادَةً حارٌّ جِدّاً، ويَكادُ يَنْعَدِمُ المَطَرُ فيهِ. وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ هُناكَ حاجَةٌ إِلَى بِناءِ مَنازِلَ قَوِيَّةٍ كَما هِيَ الحالُ في الأَجْواءِ البارِدَةِ. وَكانَتِ المَنازِلُ عادَةً تُبْنى مِنَ الطّوبِ النَّيْءِ، وَفي بَعْضِ الحالاتِ كانَ الحَصيرُ يُسْتَعْمَلُ لِلْجُدْرانِ.

أَمّا في المُدُنِ، حَيْثُ المِساحاتُ مَحْدودَةٌ فَقَدْ تُقامُ مَنازِلُ مِنْ طَبَقَتَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ وَالأَعْمالُ المَنْزِلِيَّةُ كالغَسيلِ وَالطَّهْوِ وَالنَّسْجِ كانَتْ تُؤَدّى عَلَى السَّطْحِ. وَفي مَدينَةِ أَخْناتونَ الجَميلَةِ، كانَتْ مَنازِلُ الأَثْرِياءِ فَسيحَةً جِدّاً، وَلَها حَدائِقُ كَبيرَةٌ، وَتَحْتَوي عَلَى حُجْرَتَيِ اسْتِقْبالٍ رَئيسِيَّتَيْنِ وَكَثيرٍ مِنَ الغُرَفِ الخاصَّةِ بِأَفْرادِ العائِلَةِ كَما كانَ بِها حَمّاماتٌ، حَيْثُ يُمْكِنُ سَكْبُ الماءِ مِنْ دَلْوٍ مُعَلَّقٍ، وَكانَتِ المَراحيضُ مُتَّصِلَةً بِقَنَواتِ صَرْفٍ إِلَى آبارٍ خارِجَ المَنْزِلِ. وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ مَطابِخُ. فَقَدْ كانَ الطَّهْوُ يُجَهَّزُ في الفِناءِ أَوْ في أَحَدِ المَباني الجانِبِيَّةِ.

وَأَحَبَّ المِصْرِيّونَ الحَدائِقَ وَأُولِعُوا بِالجُلوسِ إِلَى جانِبِ بِرَكِ أَسْماكِ الزّينَةِ، أَوْ تَحْتَ ظِلالِ الأَشْجارِ.

المُرَطِّباتُ تُقَدَّمُ في حَديقَةِ المَنْزِلِ.



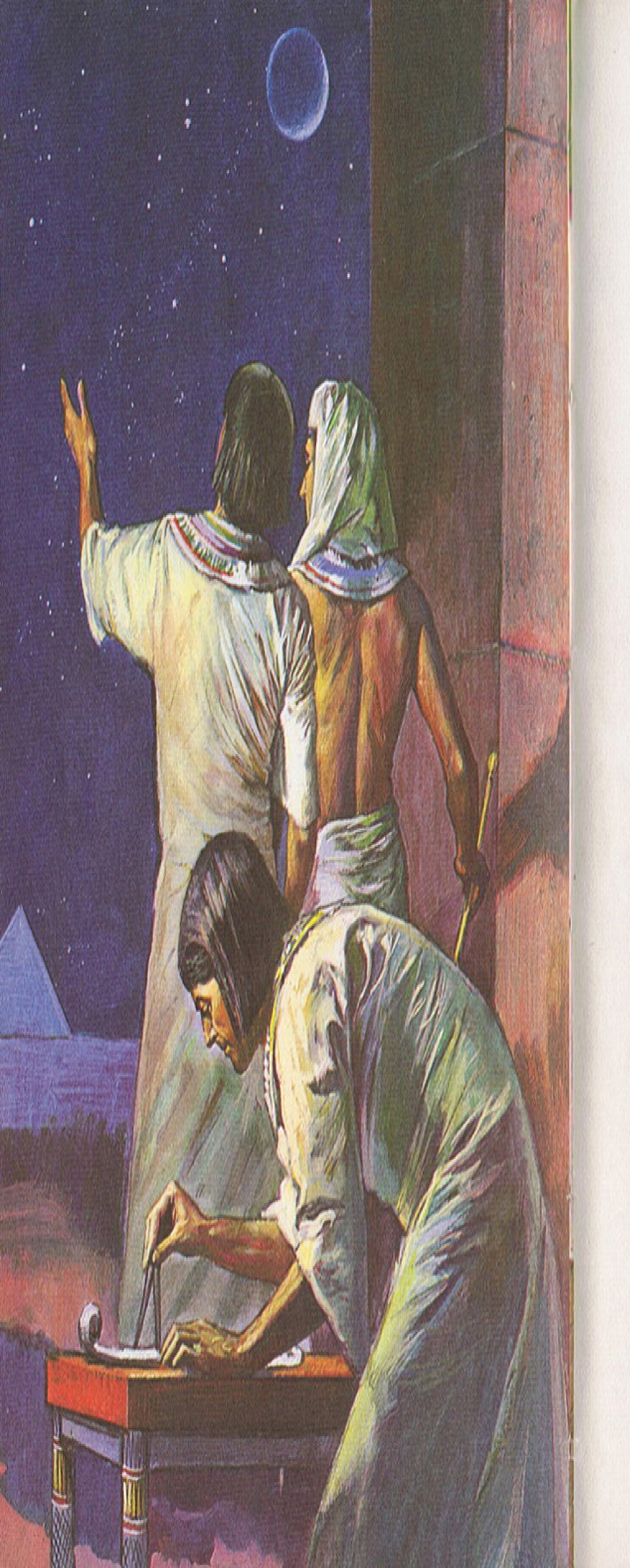
الحرفيون

قد يرجع التاريخ إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد حين اكتشف المصريون كيفية عمل معجون ملون ناعم ، يصبح قاسياً وذا سطح مصقول إذا تعرض للتجفيف على النار وينتج عنه نوع من الخزف المزخرف كان شائع الاستعمال عند المصريين . فعملوا منه أواني ، وخواتم ، وعقوداً ، ونماذج للحيوانات والطيور والحشرات . واستخدم هذا المعجون كثيراً في عمل الأحجبة والتمائم السحرية ، التي كان المصريون يلبسونها للوقاية .

وهناك الأدوات المصنوعة من الخشب أو المعدن أو الزجاج أو الفخار ، وورق البردي والحبر الملون ، إضافة إلى مواد الزينة . والأمشاط ، والمرايا ، والحلي ، والمنسوجات الحريرية الرفيعة . والأقمشة المصنوعة من الكتان . . . كل ذلك يدل على أن المصريين منذ آلاف السنين . أقاموا المعامل المعدة إعداداً دقيقاً . والتي كثيراً ما كانت مرتبطة بالمعابد الكبيرة ، ويشتغل فيها عديد من العمال .

وكان العمال الذين يقومون ببناء المقابر يقطنون عادة في قرى ومستعمرات قريبة من مكان عملهم . وكانوا يقسمون إلى مجموعات برأس كلاً منها مشرف . وتعمل المجموعات حسب جدول توقيت ، وفي أيام عطلتهم تترك لهم حرية العمل لأنفسهم . وكان العمال في بعض الأوقات ينهبون المقابر التي كانوا قد أسهموا في بنائها . وكانت تقدم لهم الآلات التي يستعملونها ، كما كان أجرهم يشمل المال والطعام والكساء . وكان العمال يضربون إذا ما تأخر أجرهم وهذا كان نادراً . وتبين بعض الوثائق الأعذار التي كان ينتحلها العمال للتغيب عن العمل مثل « كنت مضطراً لأخذ حماري للبيطري » أو « ذهبت لمأتم عمي » . وما أشبه حضارة قدماء المصريين بحضارتنا اليوم .

منظر بين الازدحام يوم السوق .



العُلومُ

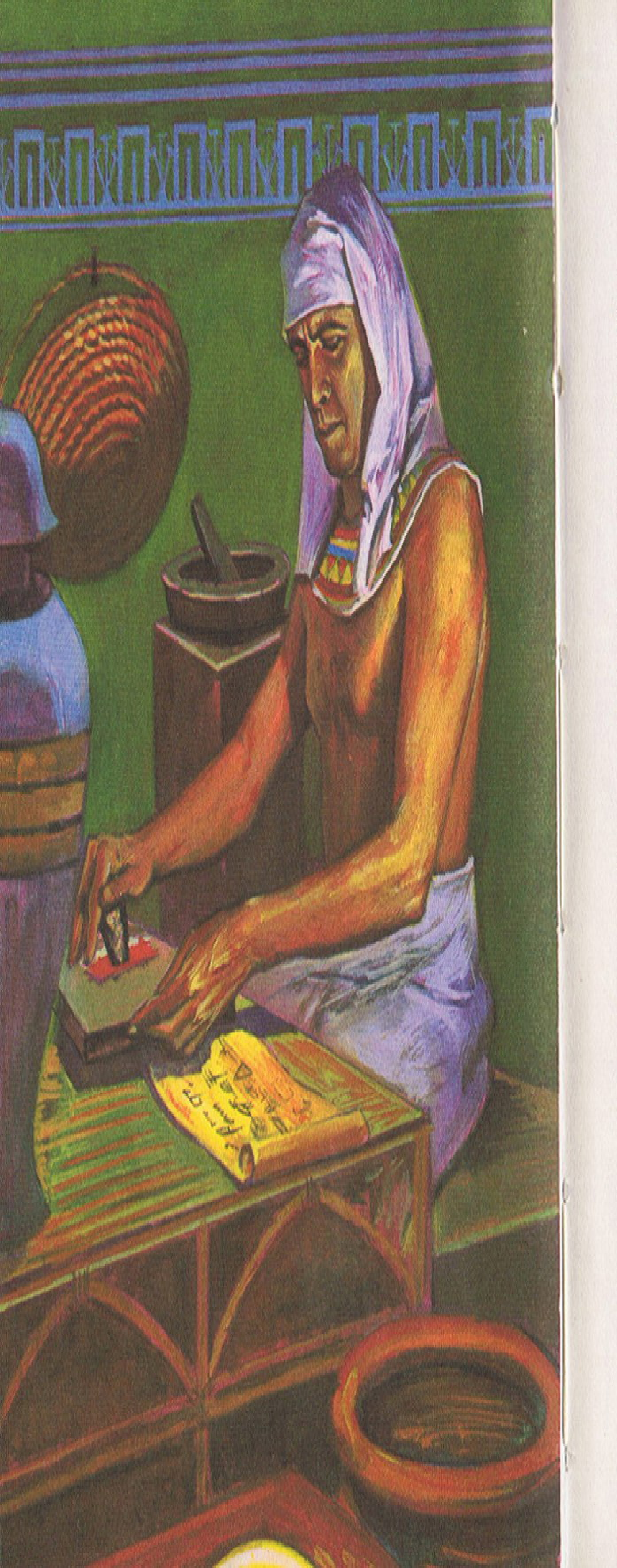
بَرَعَ المِصْرِيُّونَ في الحِسابِ والهَنْدَسَةِ ، وكانَ ذلِكَ لِزاماً عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ كانُوا مُضْطَرِّينَ كُلَّ عامٍ إلى أَنْ يُخَطِّطُوا مِساحاتِ الزِّراعَةِ ، الَّتي كانَ النِّيلُ يَمْحُو مَعالِمَها بِفَيَضانِهِ السَّنَوِيِّ في العامِ السَّابِقِ .

واكْتَشَفَ المِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ إذا أَخَذُوا ثَلاثَ قِطَعٍ مِنَ الخَيْطِ أَطْوالُها : ٣ أَذْرُعٍ ، و٤ أَذْرُعٍ ، و٥ أَذْرُعٍ ، وَثَبَّتُوها عَلى هَيْئَةِ مُثَلَّثٍ ، حَصَلُوا عَلى زاوِيَةٍ قائِمَةٍ ، حَيْثُ يَتَقابَلُ الجانِبانِ القَصِيرانِ ، وَقَدْ ساعَدَهُمْ ذلِكَ عَلى تَخْطِيطِ حُقُولٍ مُسْتَطِيلَةِ الشَّكْلِ ، ويَسَّرَ لَهُمْ إحْصاءَ مِساحَةِ الحَقْلِ . وكانُوا مُضْطَرِّينَ إلى مَعْرِفَةِ هذا عِنْدَ زِيارَةِ مُحَصِّلِ الضَّرائِبِ .

ولا تَزالُ لَدَيْنا ، مُنْذُ تِلْكَ الأَزْمانِ الغابِرَةِ ، كُتُبُ حِسابٍ وَهَنْدَسَةٍ تُبَيِّنُ نَوْعَ المَسائِلِ الَّتي كانَ عَلى المِصْرِيِّينَ حَلُّها . وكانَتْ عادَةً مَسائِلَ عَمَلِيَّةً ، مِثْلَ إيجادِ مِساحَةِ حَقْلٍ ، أَوْ إحْصاءِ عَدَدِ الطُّوبِ اللاَّزِمِ لِمُنْحَدَرٍ . كَذلِكَ كانُوا عَلى عِلْمٍ بِكَثِيرٍ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الَّتي اسْتَعْمَلَها الإغْرِيقِيُّونَ مِثْلُ إقْلِيدِسَ وَفِيثاغُورَس فيما بَعْدُ .

وَمُنْذُ فَجْرِ تارِيخِهِمْ ، عَرَفَ المُثَقَّفُونَ المِصْرِيُّونَ عِلْمَ الفَلَكِ . وكانَتْ مُراقَبَةُ السَّماءِ مَيْسُورَةً حَيْثُ اللَّيالي صافِيَةٌ ، والنُّجُومُ تَسْطَعُ وَتَتَأَلَّقُ . وَراقَبَ الكَهَنَةُ بِدِقَّةٍ أَوْجُهَ القَمَرِ ، وَتَحَرُّكاتِ النُّجُومِ كَيْ يُحَدِّدُوا الأَيَّامَ المُناسِبَةَ لِلأَعْيادِ . وَلِلأَغْراضِ العامَّةِ كانَتِ السَّنَةُ تُعْتَبَرُ مُكَوَّنَةً مِنْ ثَلاثَةِ فُصُولٍ . كُلُّ فَصْلٍ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ . وكُلُّ شَهْرٍ ثَلاثُونَ يَوْماً ، أَمَّا خَمْسَةُ الأَيَّامِ الباقِيَةُ فَكانَتْ تُعْتَبَرُ عُطْلَةً في آخِرِ السَّنَةِ .

الفَلَكِيُّونَ يُراقِبُونَ السَّماءَ في اللَّيْلِ .

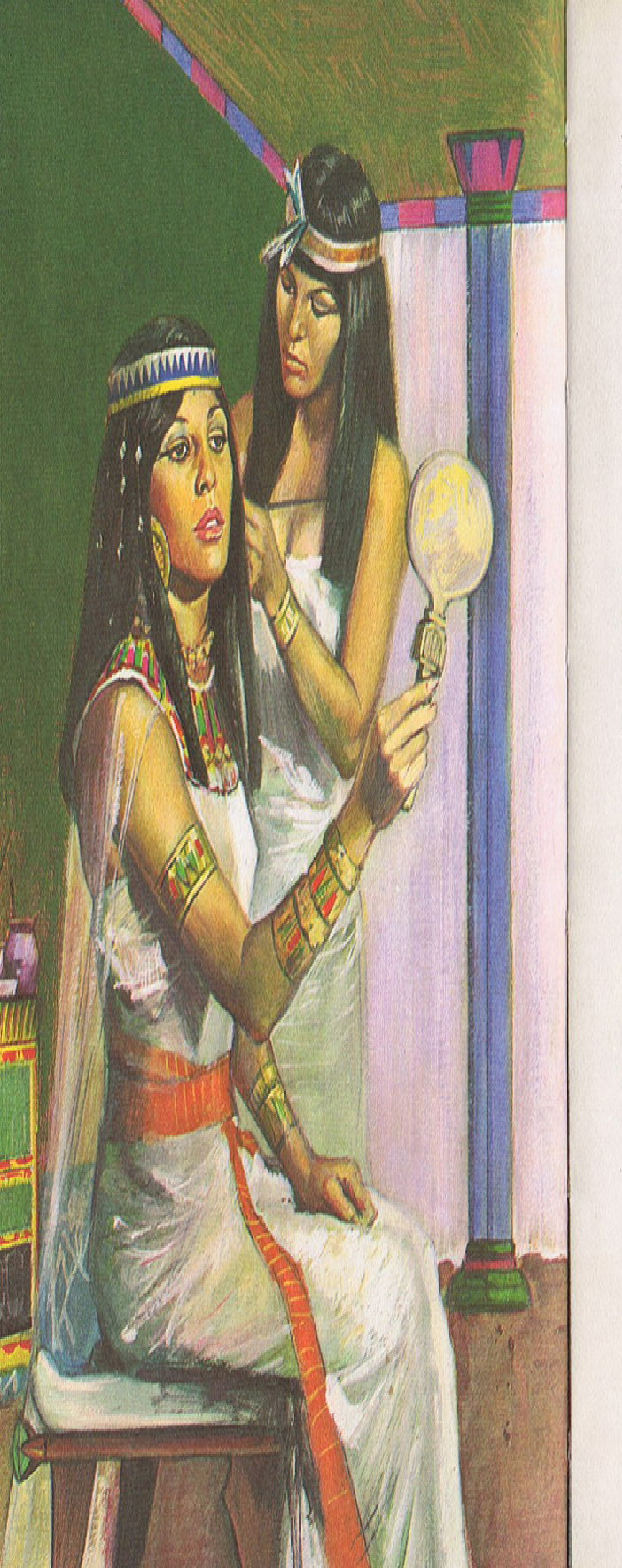


كَانَ الْمِصْرِيُّ مَحْظُوظاً ، لِأَنَّهُ إِذَا مَرِضَ وَجَدَ مَنْ يَقُومُ بِعِلَاجِهِ مِنْ أَطِبَّاءَ وَجَرَّاحِينَ مَهَرَةٍ .

وَيَرْجِعُ هٰذَا بَعْضَ الشَّيْءِ إِلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُحَنِّطُونَ جُثَثَ الْمَوْتَى مِنَ الْأَثْرِيَاءِ . وَتَعَلَّمَ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِهٰذِهِ الْمُهِمَّةِ كَثِيراً مِنْ عِلْمِ التَّشْرِيحِ . وَالْجُثَثُ الْمَحْفُوظَةُ وَتُسَمَّى « مُومْيَاءَات » ، كَانَتْ تُحْفَظُ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ ، وَتُلَفُّ وَتُوضَعُ كُلُّ وَاحِدَةٍ عَلَى حِدَةٍ فِي تَابُوتٍ مُزَيَّنٍ بِالرُّسُومِ وَالنُّقُوشِ وَفِي بَعْضِ الحَالَاتِ يَكُونُ مَصْنُوعاً مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ . وَتَمَكَّنَ الْأَطِبَّاءُ فِي عَصْرِنَا مِنْ مَعْرِفَةِ الْكَثِيرِ عَنْ طُرُقِ الْعِلَاجِ مُنْذُ آلَافِ السِّنِينَ ، مِنْ دِرَاسَةِ تِلْكَ الْوَسَائِلِ النَّاجِحَةِ . كَذٰلِكَ تُوجَدُ مَعْلُومَاتٌ عَنِ الْعَقَاقِيرِ الَّتِي كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا ، وَوَصْفٌ لِأَعْمَالِ الْجَرَّاحِينَ . وَيُمَاثِلُ بَعْضُ آلَاتِهِمِ الجِرَاحِيَّةِ كَثِيراً مِمَّا نَسْتَعْمِلُهُ الْيَوْمَ . إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ حِينَذَاكَ تُصْنَعُ مِنَ الْبُرُونْزِ بَدَلاً مِنَ الصُّلْبِ غَيْرِ الْقَابِلِ لِلصَّدَأِ . أَمَّا الْكُسُورُ وَالْتِوَاءُ الْمَفَاصِلِ وَالْجُرُوحُ . الَّتِي كَانَتْ أَسْبَابُهَا ظَاهِرَةٌ ، فَكَانَتْ تُعَالَجُ بِحِكْمَةٍ ، فَتُنَظَّفُ وَتُوضَعُ عَلَيْهَا مَرَاهِمُ نَاجِعَةٌ ، وَتُجَبَّرُ الْعِظَامُ الْمَكْسُورَةُ . وَلَمَّا كَانَ الْاعْتِقَادُ السَّائِدُ هُوَ أَنَّ الْمَرَضَ نَاتِجٌ مِنَ الْأَرْوَاحِ الشِّرِّيرَةِ ، فَكَانَ مِنْ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ السِّحْرُ وَالشَّعْوَذَةُ لِطَرْدِ الشَّيَاطِينِ .

وَاعْتَرَفَ أَبُقْرَاط ، طَبِيبُ أَثِينَا الشَّهِيرُ — بِتَفَوُّقِ الْأَطِبَّاءِ الْمِصْرِيِّينَ . وَتَعَلَّمَ الْكَثِيرَ مِمَّا خَلَّفُوهُ وَانْتَقَلَ إِلَى أَجْيَالٍ كَثِيرَةٍ بَعْدَهُمْ . وَهٰكَذَا يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِي بَعْضِ مَا نَنْعَمُ بِهِ مِنْ عِلَاجٍ وَشِفَاءٍ عَلَى أَيْدِي أَطِبَّاءِ الْيَوْمِ وَطَبِيبَاتِهِ ، إِلَى أَطِبَّاءِ مِصْرَ الَّذِينَ عَاشُوا قَبْلَ الْمِيلَادِ بِآلَافِ السِّنِينَ .

طَبِيبٌ يُعِدُّ وَصْفَةً مِنْ كِتَابِهِ .

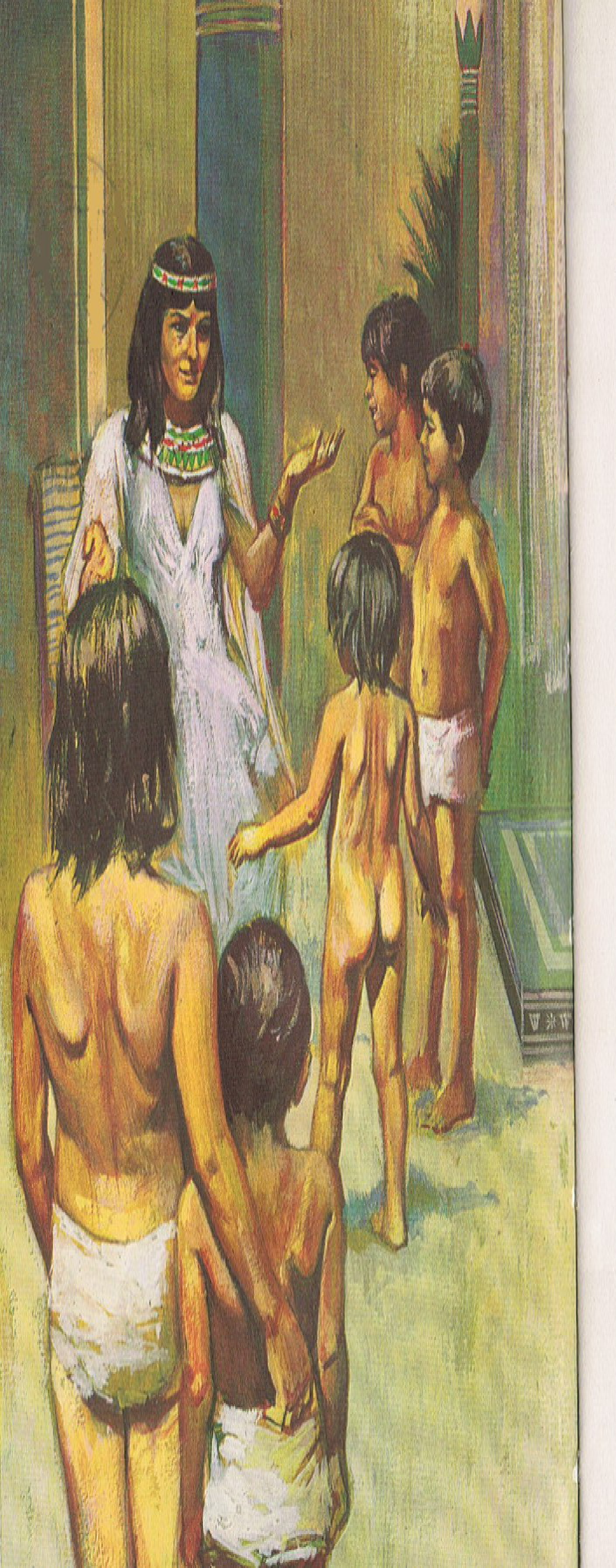


المُجوهَراتُ وأدواتُ التَجْميل

أولِعَ المِصْريُّونَ بالمُجوهَراتِ وأدواتِ الزِّينَةِ . ولَقَدْ وُجِدَ في المَقابِرِ كثيرٌ مِنَ الخَواتِمِ ودَبابيسِ الصَّدْرِ والعُقُودِ والأقْراطِ والزَّنانيرِ وحُليِّ الشَّعْرِ ، وكُلُّها جَميلَةُ التَّصْميمِ مَصْنُوعَةٌ بأيْدي مَهَرَةٍ ، في صِياغَةِ الذَّهَبِ والأحْجارِ الثَّمينَةِ مِثْلِ حَجَرِ الجَمَشْتِ والعَقيقِ . بَيْنَما اسْتَعْمَلَ الفُقَراءُ خَرَزاً مِنَ الصِّيني لِعَمَلِ العُقودِ والقَلائِدِ . واسْتُعْمِلَ الخَرَزُ المُلوَّنُ لِعَمَلِ أطْواقٍ جَميلَةٍ . نُسِّقَ فيها على شَكْلِ صُفوفٍ مِنَ الزَّهْرِ — وكانَتِ المَلابِسُ البَسيطَةُ البَيْضاءُ الكَتّانِيَّةُ الَّتي يَرْتَدُونَها دائِماً تُبْرِزُ ألْوانَ الحُليِّ الزّاهِيَةَ .

وتَمَثَّلَ حُبُّ الزَّخْرَفَةِ أيْضاً في تَنْميقِ وتَزْيينِ الأسْلِحَةِ مِثْلِ الخَناجِرِ ومَقابِضِ السُّيوفِ . وقَدْ وُجِدَ بَعْضٌ مِنْ هَذِهِ الرَّوائِعِ في مَقْبَرَةِ تُوت عَنْخ آمونَ ، ومِنْ بَيْنِها خِنْجَرٌ نَصْلُهُ مِنَ الذَّهَبِ ، وغِمْدُهُ ذَهَبٌ رائِعُ النُّقُوشِ . وكانَتْ هَذِهِ الأسْلِحَةُ تُصْنَعُ لِلزِّينَةِ لا لِلاسْتِعْمالِ . وكانَ الذَّهَبُ وافِراً في مِصْرَ القَديمَةِ ، إذْ كانَتْ مَناجِمُ النّوبَةِ (السُّودانِ الآنَ) تَزْخَرُ بِهِ . ووُجِدَ في المَقْبَرَةِ أيْضاً تِمْثالُ شَخْصٍ صَغيرٌ مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ ، وأقْنِعَةٌ مِنَ الذَّهَبِ . وصَناديقُ مُغَطّاةٌ بِطَبَقَةٍ مِنَ الذَّهَبِ المَطْروقِ . أمّا الفِضَّةُ فَكانَتْ أقَلَّ اسْتِعْمالاً في مِصْرَ في ذَلِكَ الوَقْتِ ، وفي بَعْضِ الأوْقاتِ كانَتْ أغْلى مِنَ الذَّهَبِ .

ولِحِمايَةِ أعْيُنِهِمْ مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ . اسْتَعْمَلَ رِجالُ مِصْرَ القَديمَةِ ونِساؤُها كُحْلاً أخْضَرَ اللَّوْنِ . وكانَ يُسْحَنُ (يُسْحَقُ) عَلى قِطْعَةِ حَجَرٍ صَغيرَةٍ ، ويُحْفَظُ في قارُوراتٍ حَجَرِيَّةٍ صَغيرَةٍ دَقيقَةِ الصُّنْعِ .



كانَتِ الْعُطورُ تُصْنَعُ مِنَ الزُّيوتِ الْمُعَطَّرَةِ ، وَتُمْزَجُ بِالْمَراهِمِ لِدَهْنِ الْجِسْمِ . وكانَ يوضَعُ في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ قِمْعٌ مِنَ الْعِطْرِ فَوْقَ الرَّأْسِ في الْحَفَلاتِ . فَإِذا ما لانَ تَدْريجِيّاً امْتَزَجَ بِالشَّعْرِ . (وَفي الصّورَةِ عَلى صَفْحَةِ ٤١ تَرى امْرَأَةً مُتَحَلِّيَةً بِأَحَدِ هٰذِهِ الأَقْماعِ) .

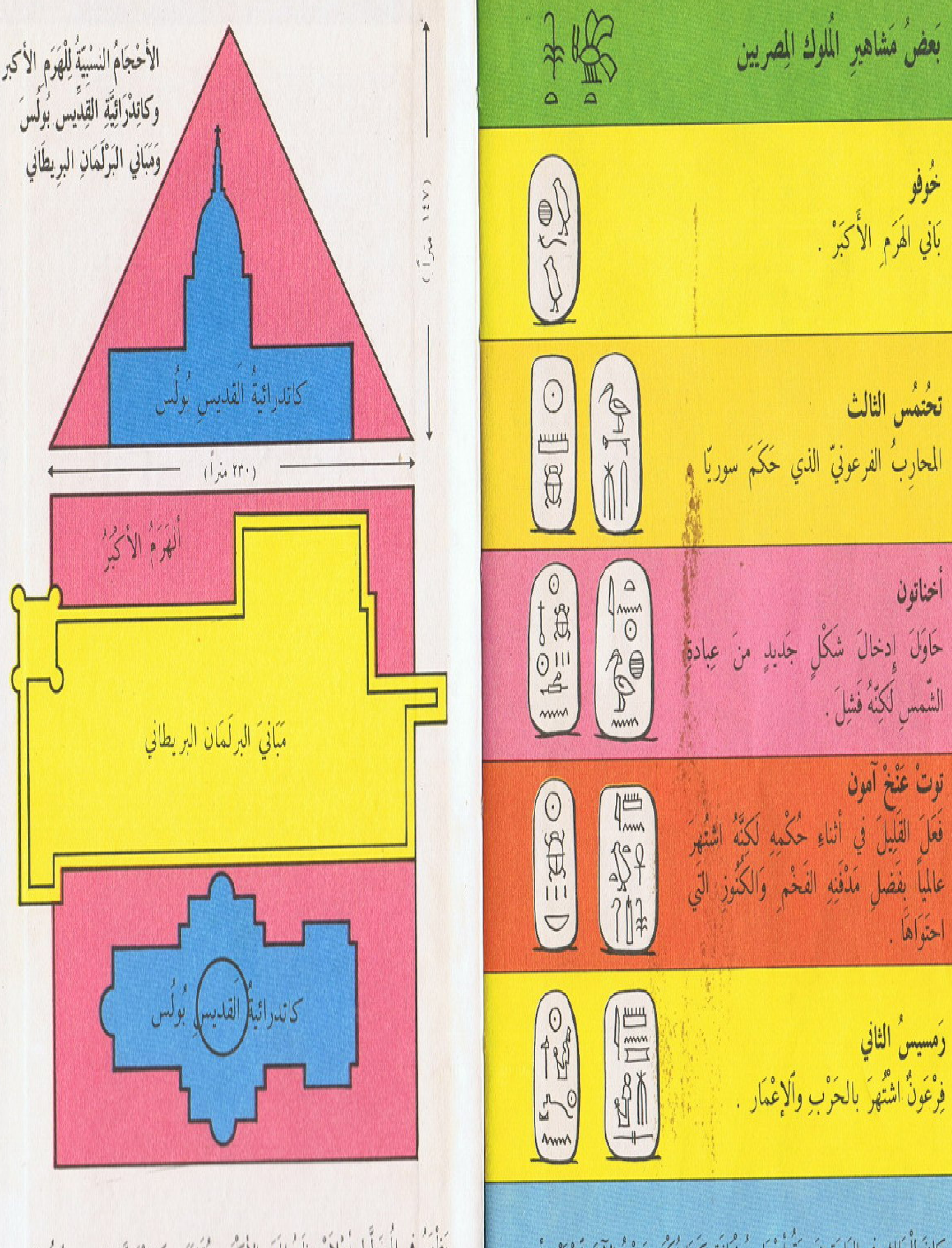
وكانَ العُظَماءُ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ يَلْبَسونَ شُعوراً مُسْتَعارَةً أَمّا الْفُقَراءُ فَكانوا عادَةً يَقُصّونَ شُعورَهُمْ . وكانَتْ شُعورُ الأَغْنِياءِ تُنَمَّقُ بِالضَّفائِرِ وَالتَّجاعيدِ الْكَثيرَةِ . وَتَحَوَّلَتِ الأَزْياءُ مِنْ طَويلَةٍ ذاتِ ثَنياتٍ كَثيرَةٍ إِلى أَزْياءٍ قَصيرَةٍ جِدّاً وَمُسْتَديرَةٍ .

وَتَغَيَّرَتْ أَزْياءُ الْمَلابِسِ أَيْضاً . فَفي الْعُصورِ الأُولى كانَ الرِّجالُ يَرْتَدونَ نُقْبَةً (تَنّورَةً) قَصيرَةً يَتَمَنْطَقونَ بِها حَوْلَ خُصورِهِمْ . وكانَتِ النِّساءُ يَرْتَدينَ أَثْواباً طَويلَةً بَسيطَةً ، ثُمَّ أَصْبَحْنَ يَرْتَدينَ ثِياباً أَطْوَلَ بِثَنياتٍ وَطَيّاتٍ كَثيرَةٍ ، وَفي بَعْضِ الأَوْقاتِ يَلْبَسْنَ فَوْقَها عَباءَةً خَفيفَةً — وكانَتْ كُلُّها مَصْنوعَةً مِنَ الْكَتّانِ الأَبْيَضِ الرَّفيعِ .

وكانَ الأَطْفالُ يَرْتَدونَ ثِياباً قَليلَةً جِدّاً ، كَما تَرى في الصّورَةِ ، وَهُمْ يُنْصِتونَ لِحِكايَةٍ . وَبَعْضُ تِلْكَ الْحِكاياتِ الَّتي سَمِعَها أُولٰئِكَ الأَطْفالُ ما زالَتْ تُقْرَأُ الْيَوْمَ .

وَلَقَدْ رَأَيْنا في هٰذا الْكِتابِ كَيْفَ أَنَّ الْمِصْرِيّينَ كانوا شَعْباً مُتَحَضِّراً جِدّاً ، وَقاموا بِأَعْمالٍ عَظيمَةٍ . فَمِنْهُمْ مِعْمارِيّونَ بارِعونَ ، وَحِرَفِيّونَ وَفَنّانونَ مَهَرَةٌ . وَكَثيرٌ مِنْ هٰذِهِ الإِنْجازاتِ انْتَقَلَ إِلى الإِغْريقِ فَنَقَلوهُ بِدَوْرِهِمْ إِلى الْحَضارَةِ الأُورُبِّيَّةِ .

أَمّا وَقَدْ قَرَأْتَ الآنَ عَنِ الْمِصْرِيّينَ ، فَقَدْ تَرْغَبُ في زِيارَةِ مُتْحَفٍ لِتَرى بَعْضَ ما صَنَعوا . وَفي أَكْثَرِ الْمَتاحِفِ يوجَدُ بَعْضٌ مِنْ هٰذِهِ الآثارِ — وَيَنْفَرِدُ الْمُتْحَفانِ الْمِصْرِيُّ في الْقاهِرَةِ وَالبِريطانِيُّ في لَنْدَنَ بِمَجْموعاتٍ نَفيسَةٍ في هٰذا الْمَجالِ .



كانَ للملكِ في العادةِ خمسةُ أسماءٍ مختلفةٍ كما نُكنّى نحنُ الآنَ باسمينِ أو ثلاثةٍ . والأسمانِ المشهورانِ منَ الخمسةِ كانا يُدوَّنانِ في خرطوشاتٍ خاصّةٍ .

يظهرُ في المخطّطِ أعلاهُ عِظَمُ الهرمِ الأكبرِ بمقارنتِهِ بكاتدرائيّةِ القدّيسِ بولُسَ ومباني البرلمانِ البريطاني .

السّلسلة التّاريخيّة

(١) جان دارك

(٢) ماركوبولو

(٣) الكابتن سكوت

(٤) نابوليونُ

(٥) كليوباترا ومِصْرُ القَديمةُ

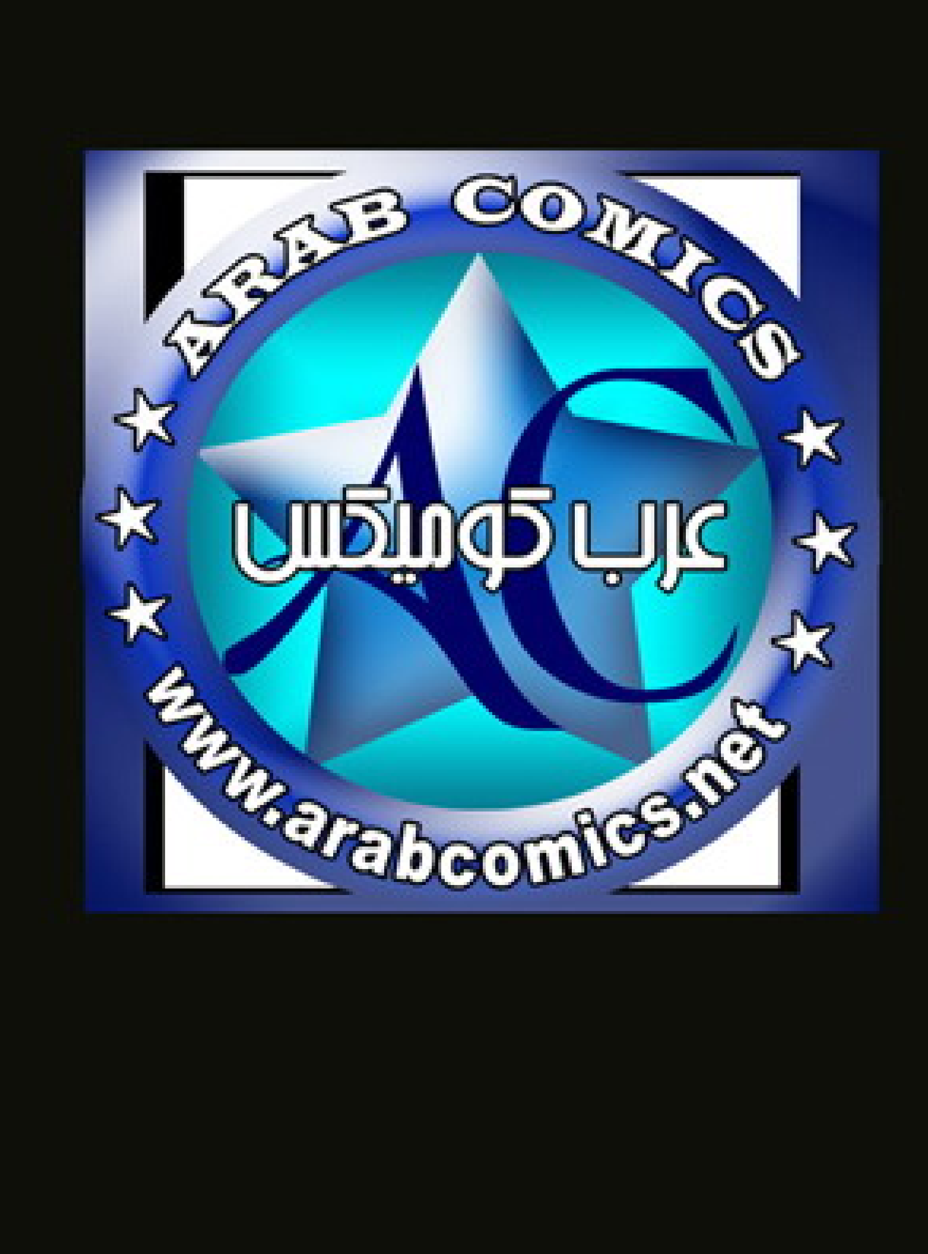
(٦) تشارلز ديكنز

(٧) كريستوفر كولمبُسُ

(٨) الإسْكَنْدَرُ الأكْبَرُ

(٩) الحَضاراتُ الكُبْرى : مصر

Series 561 / Arabic


ARAB COMICS
عرب كوميكس
AC
www.arabcomics.net